الفصل الثالث

الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط (١١٦٩م/٥٦٥هـ).

- استغاثة عموري بالغرب الأوربي في بداية عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ
- مناقشة ملامح النفوذ الديني لبيزنطة في المملكة عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ
- الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، الأسباب والنتائج.

obeikandl.com

ظلت فكرة غزو الملك عموري لمصر -بعيداً عن المساعدة البيزنطية- قائمة في ذهنه، بما بدا من طرقه لأبواب ملوك أوربا بعد حملته السابقة على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ التي كانت بداية لتحطم أطماعه في مصر في الفترة التالية على مستوى سياسته الخارجية؛ وذلك بسبب استخفافه بعزيمة الشعب المصري واستهانته بالوزير شاور، ولم يدرك أن أسد الدين شيركوه سيسلك سبله إلى مصر ويحقق فيها ما سبق وفشل فيه، من السيطرة على مقاليد أمورها، وقد انسحب عموري هو وباروناته خاليين الوفاض والأيدي؛ لأن عموري نجح في تملقهم، إذ إنه أغراهم بوعود الإقطاعات الوفيرة، بينما أصبح هو المستفيد الوحيد من الحملة كلها، ولذا فلم يكن بعيداً أن يتُهم بخيانة باروناته، بيد أنه كان من الصعب عليه أن يغير ما حدث، بل لقد نم تراجعه - عن مصر مؤخراً - عن وجود فكرة محددة في ذهنه، وهي أنه ربما كان يُفكّر في القيام بمحاولة أخرى تالية لغزو مصر، بل وربما كان في ذهنه أيضاً أن شيركوه لن يلبث أن ينسحب من مصر مثلما حدث في كل محاولة سابقة من صراعه معه عليها، وعندها ربما تُرِك المجال مفتوحاً أمام الفرنجة لمحاولة أخرى فيها.

وقد يفهم من سلسلة الأحداث الأخيرة أن عموري أضاع الفرصة الحاسمة للاستيلاء على مصر بعد فشله في الاستيلاء عليها عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ، ولكنه سيكون انتقاداً مجحفاً إلى حد ما وذلك لأن عموري كان يرى الأمر بصورة مختلفة تماماً؛ لأنه لم يكن في ذهنه أن يساند المصريون شيركوه في مصر عقب انسحابه، ولم يكن خليفته صلاح الدين - الذي بنى فيما بعد دولة قوية كانت المملكة الصليبية أولى ضحاياها - قائداً مهماً حتى قضائه على الخلافة الفاطمية عام ١١٧١م/٥٦٧هـ، علاوة على أن عموري كان آنذاك في أوج قوته ولم يكن غزوه لمصر سوى تأجيل لم يتخل عنه وإنما حاول أن يُطور سياسته تبعاً لذلك[1].

وقد يبدو هنا أن الملك عموري قرر بعد هزيمته سياسياً وعسكرياً في مصر في حملته السابقة عليها، اللجوء إلى بيزنطة وتوثيق علاقاته بها، بيد أن ذلك يجافي الحقيقة؛ لأن استعانة عموري ببيزنطة لم تكن القضية التي تشغل باله؛ لأن موقفه عام

([1]) Lilie, *Byzantium*, pp.315-316.

١١٦٨م/٥٦٤هـ لم يكن مختلفاً عن موقفه عن عام سابق، كما لم يتغير النفوذ البيزنطي في شمال بلاد الشام أو لم يطرأ عليه تغيير خطير منذ تعيين البطريرك الأرثوذكسي في أنطاكية عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، وما زال الملك عموري يُصرّ على أن الوجود البيزنطي في مصر - بعد الاستيلاء عليها - يهدد بتطويق المملكة على نحو خانق من الجنوب مثلما حدث في الشمال على يد البيزنطيين أنفسهم والمسلمين، بل ربما أطمع البيزنطيين ذلك في المملكة ذاتها، وعليه لم يكن وجود البيزنطيين في مصر في المستقبل أمراً مرغوباً، ولكن أثبتت الأحداث عدم كفاية قوى المملكة وحدها للقيام بغزو مصر، وعلى هذا الأساس كان عموري يفكر في تجاهل المفاوضات مع بيزنطة، أو لنقل معاهدته معها وذلك للمرة الثانية، وفي الوقت ذاته لم يتخل عن أطماعه في مصر نهائياً، وإنما اتخذ عدة إجراءات تالية، لعل أهمها طرقه لأبواب ملوك غرب أوربا وتحالفه مع بعض المدن الإيطالية، كان فيها من التأكيد ما يكفي على عزمه ألا يستفيد من بيزنطة بوصفها حليفته.

وعند هذه النقطة يتساءل الباحث: إذا كان الملك عموري يتمسك بتحالفه مع بيزنطة، فلماذا لم يطالبها بتنفيذ بنود معاهدتها معه حينما عاد من مصر مباشرة؟ ولماذا توجه إلى الاستغاثة بالغرب الأوروبي؛ بالبابوية وملوك الغرب وكبار أمرائه؟ ولماذا قام بمنح البيازنة امتيازات جديدة في ١٧من سبتمبر١١٦٩م/٢٣من ذي الحجة٥٦٤هـ[1] في الوقت الذي كانت بيزنطة تمده بجيش قوي وأسطول ضخم؟

الواقع أن تصرفات الملك عموري التي أعقبت حملة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ تتسم بالغموض، وذلك لأنه حينما عاد إلى بيت المقدس من حملته على مصر فاشلاً فإنه أعدّ عُدته للاستعانة بالدول الأوربية، ويرجح أنه كان يأمل أن يجد من وراء ذلك لدى أحد ملوكها الشجاعة الفردية أو الجماعية على القيام بحملة كبيرة لمساعدته في الاستيلاء

([1]) عن الامتيازات التي منحها الملك عموري للبيازنة في ١٧من سبتمبر١١٦٩م/٢٣ من ذي الحجة انظر:

Rohricht, *Regesta*, no.467; Müller, *Documenti*, p.15, no.12. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.315-317.

على مصر، ولذا فلم يترك عموري واحداً من ملوك أوربا وكبار أمرائها إلا وكتب إليه، فكتب إلى البابا ألكسندر الثالث ولويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك انجلترا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ووليم الثاني ملك صقلية النورماني، علاوة على الكونتات الكبار أمثال فيليب كونت الفلاندرز وهنري كونت تروي وثيوبولد الثاني أوف شارترز، بعث عموري إلى هؤلاء جميعاً رسائل منه ومن جميع الأساقفة بالمملكة، وقد وقع اختيار الملك على فردريك رئيس أساقفة صور ويوحنا أسقف بانياس إضافة إلى جيلبرت دي أسالي مقدم الاسبتارية - الذي خُلع لتوه من منصبه وذهب لتبرئة ساحته مما نُسب إليه في الغرب - للقيام بهذه السفارة[1].

ولكن قبل أن يستطرد الباحث في الخوض في مهمة السفارة وما تمخضت عنه ينبغي التساؤل عن إشكالية غاية في الأهمية وهي أنه إذا كان الملك عموري في أمسّ الحاجة إلى المساعدة في غزو مصر فلماذا لم يرفق على الأقل إحدى رسائله إلى الإمبراطور مانويل كومنينوس؟ لقد كانت معاهدة التحالف التي عقدها وليم الصوري لا تزال سارية المفعول، وبإمكان عموري أن يطلب من مانويل أن يبدأ في تنفيذ ما اتفقا عليه في المعاهدة، وبخاصة أن ما قام به عموري من حملة على مصر لم تكن لتضير الإمبراطور؛ لأنها حدثت قبل أن تُنجز المعاهدة أو تتم، ومن جهة أخرى يُلمس في تصرف عموري في مراسلته لكافة ملوك الغرب - وبخاصة فردريك بربروسا - بعض التناقض وعدم الوضوح، فقد يبدو أن عموري لم يكن ساذجاً في هذا التصرف،

([1]) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٥-١١٦.

وقد أكدت مصادر أخرى معاصرة - من بينها بعض وثائق المملكة - ما ذهبت به سفارة عموري من حيث الأشخاص الذين قاموا بها وتفاصيل تحركاتهم وعروض الملك عموري التي حملوها إلى البابا ألكسندر الثالث والملك الفرنسي لويس السابع والملك الإنجليزي هنري الثاني. انظر في ذلك:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Rohricht, *Regesta*, no. 463, 464; Jaffe-Lowenfeld, *Regesta*, no. 11637-11638; Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, coll.600; Alexander III, in Richard, p.71; *Revue de L,Orient Latin*, I, pp.144-150. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.455-456, 466.

بل ربما كان يعي ما يحققه اتصاله بفردريك بربروسا؛ نظراً لحالة العداء القائمة بين بربروسا ومانويل[١]، ولم يكن عموري بغافل عن سيادة تلك العلاقة؛ لأن اتصالاته بالغرب كانت مفتوحة ومباشرة، وكان وليم الرابع كونت نيفر لديه منذ أقل من عام، في حملته الصغيرة إلى الأراضي المقدسة[٢]، ربما أطلع عموري من خلاله على ما يسود علاقات الدول الأوربية من تكتل، ولذا فإنه في ظل هذا الوضع، ربما يرجح أن يكون عموري متعمداً مراسلة بربروسا، ربما لإتمام ما عزم عليه منذ البداية وهو عدم محالفة مانويل في غزو مصر.

بيد أن ذلك مجرد افتراض ربما يُضعفه أن عموري لم يكن في وضع يسمح له بالتلاعب على أوتار علاقة مانويل بالإمبراطور بربروسا، وإنما كان في عوز إلى أي مساندة جادة بعيداً عن نفوذ مانويل، لدرجة أنه لم يحدّد شخصاً بعينه - مثل فردريك بربروسا - كهدف لسفارته، وإنما استعان به بصفته أكبر عاهل في الغرب الأوروبي، مثلما استعان بالكونتات الكبار، وإنما الإشكال في أن عموري لم يجعل مانويل أحد الأطراف التي توجهت إليها سفارته، هذا على الرغم من أن مساعدة مانويل ستكون أضخم بكثير مما قد يتوقع عموري من الغرب الأوروبي، ولكن لم يرد في رسالة الملك عموري إشارة هذه المرة إلى الخطر البيزنطي، أو إلى المخاوف التي طالما رددها الملك من قبل اتخاذه مانويل حليفاً دفاعياً له في شمال بلاد الشام[٣]. وعند

---

(١) عن علاقات مانويل بالإمبراطور فردريك بربروسا في الفترة قيد البحث انظر:

Kinnamos, *Deeds*, pp.196-197.

انظر أيضاً: هسي: العالم البيزنطي، ص١٩٦-١٩٧؛ عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٨١-٨٨.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٨. وقد أشار الباحث إلى وليم الرابع كونت نيفر ذلك أنه مات محموماً في بيت المقدس، بيد أن جنوده شاركوا في حملة الملك عموري السابقة على مصر.

(٣) انظر خطاب الملك عموري:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

والخطاب مؤرخ بعام ١١٦٩م ويستعرض فيه الملك عموري المحاولات التي قام بها للاستيلاء على مصر، حيث أعزى عموري ارتباط فشله في مصر بالدفاع عن شمال بلاد الشام، مما جعل ظهره

هذه الفرضية يتأكد لدى الباحث أيضاً هدف عموري من عدم اتخاذه مانويل كبش فداء لتبرير طلب الدعم من الغرب الأوروبي؛ لأنه ما زال يحتاج إلى دعمه في شمال بلاد الشام؛ ربما لأنه لم يكن يعتقد أن آماله في مصر قد فشلت بعد تماماً.

وعلى أية حال توجهت سفارة عموري إلى الغرب الأوروبي، ومعلومات الباحث عنها قليلة بيد أنها - بالرغم من قلتها - مهمة للغاية، فهي مستمدة من تاريخ وليم الصوري، ومن خطاب الملك عموري إلى لويس السابع عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ الذي يبدو أن عموري خصه به مع السفارة التي أرسلها إلى الغرب، علاوة على إشارات متفرقة في بعض المصادر الغربية، ولكن ينبغي بداية تقرير أن هدف هذه السفارة الأساس يُشير إلى عدم رغبة عموري في الاستفادة من معاهدته مع مانويل، تلك المعاهدة التي قامت على أساسها حملة دمياط، وعليه فإنه ينبغي الربط بين هذين الحدثين؛ لأن فشل عموري في استفزاز استجابة الغرب له كان له دور كبير في تعمده إفشال الحملة على دمياط التي ساعدته فيها بيزنطة.

وتتميز السفارة بأنها لم تكن مجرد خطاب كسالف العهد، وإنما سفارة من بعض المبرّزين في المملكة من علماء الدين[1]، مما يدل على طابع العلاقة الجيدة للمملكة مع بطريركية بيت المقدس، واعتمادها عليها في أمر جليل كهذا، علاوة على ذكاء عموري في إبدائه مسحة دينية، بحيث تكتسب سفارته التعاطف الغربي، بل ولم يغب عن المصادر العربية هدف هذه المسحة بتعبيرها عن السفراء الذين ذهبوا في السفارة بأنهم كانوا من الرهبان والقسوس الذين ظلوا يبكون ويذرفون الدموع من أجل الحصول على المساعدة[2]، ومن ذلك تعبير ابن الأثير "فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس

غير آمن خلال تحركاته في مصر، ثم طلب عموري من لويس بعدئذ المساعدة من أجل القبر المقدس ومن أجل الصليبيين في الشرق.

(1) حينما أعد عموري سفارته الأولى إلى الغرب في بداية عام ١١٦٩م فقد تعرضت السفينة التي أقلت أعضاء السفارة لتقلبات البحر فاضطرت السفينة إلى العودة، فشكل الملك سفارة ثانية برئاسة فردريك رئيس أساقفة صور هي التي توجهت إلى الغرب. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٥-١١٦.

(2) عن سفارة عموري إلى الغرب في المصادر العربية انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢،

وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يُحرّضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح[١]"، بيد أن المصادر العربية خلطت بين إرسال عموري للسفارة إلى الغرب وبين إرسال مانويل أسطوله إلى عموري، بحيث جعلت من تحرك مانويل مع عموري على دمياط أحد نتائج تلك السفارة، ولكن ذلك لم يحدث، بل إن المصادر العربية ذاتها تحمل بداخل روايتها تناقضاً لذلك؛ لأنها عبّرت عن المساعدة القادمة التي يفترض أن تكون من الغرب، بأنها مساعدة من الروم وهي تعني عند المؤرخين المسلمين الدولة البيزنطية[٢].

واتضحت ذريعة عموري في هذه السفارة تماماً، بخلاف كافة خطاباته التي سبقت عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ هو وغيره ممن بعث يطلب مساعدة الدول الغربية، وبخاصة لويس؛ إذ اتسمت خطابات ما قبل عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ باتخاذها من تعرض أنطاكية لهجمات الأتراك السلاجقة أو الدولة البيزنطية - في بعض المراحل قبل حدوث معركة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ - ذريعة لطلب المساعدة، وكان المقصود في الباطن مملكة بيت المقدس بينما كانت أنطاكية هي ظاهر الرسالة التي كانت تربطها بفرنسا علاقات وطيدة، على اعتبار أن بوهيمند الثالث هو ابن ريمون بواتييه أمير أنطاكية الأسبق، وأحد البارونات الفرنسيين المميزين، ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن يكون اتجاه الإمارة إلى فرنسا، وقد ركز الملك عموري في بعض رسائله على مطلب إغاثة أنطاكية تحديداً[٣]، بيد أن السفارة التي تحركت إلى الغرب خلال

ص٤٥٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٥٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ، جـ٣، ص٣١٥؛ ابن خلدون: تاريخه، جـ٤، ص١٦٨.

(١) ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣.

(٣) انظر:

Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.38; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.40; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI pp. 59-60; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF,

عام ١١٦٩م/٥٦٤-٥٦٥هـ، كانت تنادي صراحة بمساعدة مملكة بيت المقدس ذاتها التي رُؤى أن الخطر كل الخطر في بقاء مصر بأيدي صلاح الدين تابع نورالدين[1].

بيد أن ثمة عاملاً مشتركاً بين هذين النوعين من الاستغاثة وهو أن الشرق الصليبي كان يطالب بمساندة أقوى من قبل الغرب، وسواء كانت المساعدة لدعم أنطاكية أم للتصدي لنورالدين وغزو مصر فإنها كانت مطلوبة بشدة، وتمثل الاختلاف في أنه لم يجر التعرض في خطابات ما بعد عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ لخطورة الإمبراطورية البيزنطية على أنطاكية، وبخاصة أن الملك عموري تغاضى عن تنصيب الأسقف الأرثوذكسي في أنطاكية عام١١٦٥م/ ٥٦٠هـ، بل واتجهت أنظاره إلى بيزنطة لالتماس مساعدتها وطلبه الزواج من إحدى أميراتها، وهذا يعني أن النفوذ البيزنطي كان قوياً في الكيانات الصليبية بصورة يصعب التغاضي عنها وخصوصاً أنطاكية، ثم وصل إلى مملكة بيت المقدس ذاتها عام ١١٦٩م/٥٦٤-٥٦٥هـ، بقيام مانويل كومنينوس ببعض الإصلاحات الكنسية والأعمال الترميمية في عدد من الكنائس في مملكة بيت المقدس، مما سيشار إليه في حينه.

وبالرغم من ذلك فإن بيزنطة لم تُقحم ها هنا في خطورتها على أنطاكية، وإنما كان عموري يرى أن أنطاكية تمثل الدرع الشمالي للإمارات الصليبية، ومن ثم فقد كان عموري يسعى إلى تحقيق نوعاً من توازن القوى في شمال بلاد الشام عموماً وجنوبه خصوصاً بما لا يُعرّض خطط المملكة في مصر للخطر، حقاً أن نبرة الاستغاثة كانت عامة، أو شاملة لإغاثة كافة الإمارات الصليبية بما في ذلك أنطاكية، بيد أن خطورة الموقف بدت جلية فيما سطره عموري في خطابه عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ، بما يعني أن عموري وغيره من معاصريه كانوا يرون في ضياع مصر الكارثة المفجعة التي أصابت المملكة وباقي الإمارات، وسواء أكان خوف

---

t. XVI, pp.38-39; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.62-63; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

([1]) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

عموري وذعره - الذي بدا من خطابه - عن تقدير واقعي للموقف أم لا فإن طلبه الاستغاثة على هذا النحو حمل جانباً من حقيقة مُرة، وهو أنه من الآن فصاعداً لن تكون هناك أية دولة مسلمة حليفة للصليبيين مثلما كانت مصر حليفة للمملكة مؤخراً حتى عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ.

وهنا تكمن مسئولية عموري في كونه أعطى نورالدين - بحملاته المتكررة على مصر - انطباعاً قوياً بأنه سوف يستولى على مصر، حينما حرّك قائده شيركوه إليها ثلاث مرات، وذلك على الرغم من أن عموري لم يكن يمتلك القدرة الكاملة لامتلاك مصر في ظل تربص نورالدين به، وفي المقابل صارت مصر وبلاد الشام المسلمة تحت قيادة موحدة لأول مرة وهو التهديد الخطير الذي تحتم على المملكة مواجهته، ولأجل كل ما سبق كانت هذه السفارة مختلفة عما سبقها من سفارات[1]، وعليه فإنها فرضت أيضاً أمراً في غاية الخطورة، وهو تسليمها مفاتيح بيت المقدس إلى بلاطي لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا، وهو ما يعني على حد تعبير لِيلِي الاعتراف بالتبعية لهما - أو لأحدهما - بالسيادة على الأراضي المقدسة.

وقد استعرض لِيلِي وجهات نظر المحدثين من المؤرخين حول هذه الإشكالية؛ إذ ذهب مايرMayer إلى تأييد هذا العرض بعد أن تركه مفتوحاً في البداية، أما سميل Smail فإنه يُشكّكّ في حدوث مثل ذلك العرض، معتمداً على أن خبر تسليم مفاتيح بيت المقدس ذُكِرَ في مصدر واحد فقط[2]، إضافة إلى اعتباره أن عموري كان ملكاً قوياً، بحيث لا يمكن أن يتخلى عن عرشه لصالح أي حاكم غربي، وقد عاد لِيلِي لطرح مسألة الخضوع إذا ما كانت تعني سيادة مباشرة؛ لأن ملكي فرنسا وإنجلترا لم يظهرا شخصياً في مملكة بيت المقدس، وعليه فإن خضوع عموري ربما عُدّ خضوعاً رمزياً، وهذا في مقابل اعترافه لهما أو لأحدهما بالسيادة الإقطاعية، وعند تلك النقطة فإنه إذا ما فعل ذلك فإنه يُلزمهما - أي لويس السابع وهنري الثاني - بضرورة دعمهما له بصورة أقوى، ولم يكن عموري في حاجة ماسة آنذاك سوى الحصول على جيش

(1) Lilie, *Byzantium*, pp.202-203.

(2) *Annal. Camerac., MGH*, vo1. 16, pp.550-551.

كبير لمساندته طبقاً لمتطلبات الوقت، وفي ختام فكرته أبدى لِيلِي أن عموري كان مستعداً من حيث المبدأ لقبول سيادة معاصرة أو رمزية، مما اتضح من أحد خطاباته السابقة إلى لويس السابع[1]، بل ربما كان هذا العرض يشتمل ضمناً على ما هو أبعد من السيادة الرمزية، ربما تشابهت مع ما مارسه مانويل في أنطاكية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، ولكن أياً كان الغرض فإنه في حد ذاته دليل على خطورة الموقف[2].

والواقع أن فكرة لِيلِي في ترجيحه لاعتراف عموري بسيادة لويس السابع عليه مقابل إمداده بالمساعدة قائمة على أساس خطاب الملك عموري إليه وبصفة خاصة ديباجة الخطاب التي جاء فيها" ... إننا نحمل التقدير لشخصكم ولمملكتكم وعلى استعداد لخدمتكم، وأن نضع آمالنا فيكم بصفة خاصة وفي مملكتكم، ونقود رجالنا وفق ما تشيرون به وما يتفق معكم[3]"، بيد أنها كما سبق وأشار الباحث ديباجة أو استهلال اعتادت رسائل تلك الفترة ديباجته، وبخاصة إذا ما كان عموري ملكاً متوجاً لتوه، يخاطب لويس السابع، أحد أذرع البابوية القوية، وأحد أقوى ملوك أوربا في عصره، علاوة على المكانة التي تبوأتها فرنسا في عصره، ومن ناحية أخرى كان لويس السابع يتمتع "بصلات وثيقة مع الإمارات الصليبية أكثر من أي عاهل أوربي آخر، ويكفيه أنها إمارات فرنسية اللغة والطابع"، وربما كان يرى نفسه أحق من غيره

([1]) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60.

([2]) انظر:

Lilie, *Byzantium*, pp.202-203.

([3]) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60.

وقد بعث الملك عموري إلى الملك لويس بهذا الخطاب عقب تتويجه – أي عموري - بقليل، وكانت ديباجة الخطاب على هذا النحو الذي استهل به عموري خطابه، وبخاصة أنه طلب بعد ذلك مساعدة لويس السابع له؛ لأنه كان في مصر آنذاك في أولى حملاته عليها في سبتمبر ١١٦٣م/شوال ٥٥٨هـ، وقد شعر بخطورة موقفه في مصر، ولذا فإن الباحث لا يستبعد اضطرار عموري إلى مثل هذا التقديم، ومن جهة أخرى فإنه إن كان عموري يقصد ما كتب فإنه ربط عرضه بالحصول على المساعدة، وعليه فإنه كان من الطبيعي أن يكون عرض عموري لاغياً حينما تجاهل لويس السابع مساعدته.

بالدفاع عن الفرنجة في الشرق[1].

أما رسالة عموري المشار إليها فإن لها ظروفاً خاصة؛ لأنها كُتبت إلى لويس السابع عقب اعتلاء عموري العرش وخلال وجوده في أولى حملاته على مصر عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ، وكان آنذاك يواجه مأزقاً شديداً، حينما لم يُقّدر خطورة ضعف موقفه أمام ضرغام وإحساسه بالغلبة، ولذا فقد كان من المتوقع أن تكون لهجة خطابه مرنة إلى أقصى حد، ولم يجد الباحث هذه اللهجة أو ذلك الأسلوب فيما بعد في أي من خطابات عموري، حتى الخطاب الذي أرسله إليه عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ، فإنه لم يكن به شيء من علامات التبعية أو الخضوع للملك الفرنسي، فإذا أدرك الباحث أن عموري بعث هذا الخطاب إلى لويس السابع خصيصاً، على خلاف الخطابات الأخرى التي أُرسلت للأطراف الأخرى، اتضح أن عموري لم يقدم على اتخاذ تلك الخطوة على الأقل بناء على نص الخطاب الذي يستند إليه لِبِلِي[2].

وأما رواية وليم الصوري فإنها كانت شديدة الوضوح، بحيث لم يشر وليم إلى هذا الأمر برمته، وبمقارنة روايته بما ورد في خطاب الملك عموري يجده الباحث لم يخرج في موضوعه عما ورد في رسالة الملك، وهذا يطمئن إلى استناده على وثائق المملكة الرسمية فيما كتبه وأنه لم يشذ عما ورد فيها ولم يفسر شيئاً بإعطائه حجماً أكبر من حجمه[3]. على أية حال لم يترتب على السفارة أياً مما اقترحه الملك عموري، سواء طلب المساعدة فقط أم طلبها وعرض في مقابلها دفع الثمن بالاعتراف بالسيادة لملوك أوربا، ولكن لماذا فشلت سفارة الملك في جلب المساعدة من بلدان الغرب وعلى رأسها البابوية؟

يُقرّ المنشور الذي أصدره البابا ألكسندر الثالث بوصول سفارة عموري إلى المقر البابوي في روما في يوليو ١١٦٩م/شوال٥٦٤هـ، وبدأت تشرح له الأخطار التي تواجه مملكة بيت المقدس، وتستفسر عن المعونة التي يمكنها الحصول عليها،

---

(1) عبدالعزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٤٠.

(2) قارن ما أورده لِبِلِي بما كتبه عموري في رسائله إلى لويس السابع المذكورة سابقاً.

(3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٥-١١٦.

وبعد قليل تحركت السفارة من روما إلى باريس في شهر سبتمبر/ذي الحجة، وسلمت خطاب عموري إلى لويس السابع، ثم كرر المبعوثون توسلاتهم أمامه، وبعد قليل من وصولهم باريس توفي الأسقف يوحنا، فتوجه فردريك رئيس الأساقفة إلى هنري الثاني ملك إنجلترا، ومعه خطابات البابا إليه ولم يكن لأي من هؤلاء رد فعل إيجابي تجاه قضية عموري التي بدا أنها قضيته هو وحده، على الأقل في ظل ظروف المجتمع الأوربي الحرجة التي كان يمر بها، وعليه لم يُعير هؤلاء سفارة عموري ما يستحق من الانتباه[١].

ويقرر روهرشت أن البابا ألكسندر الثالث هو الوحيد الذي انتصر للقضية الصليبية في منشوره الكبير، على حد تعبيره، إلى جمهور المؤمنين في الغرب، "وكان باعث ألكسندر الثالث أن يبوء أباً روحياً حقيقياً للمسيحية، سواء في الشرق أم الغرب، وعليه بذل ألكسندر جهوداً مضنية، وعلى الرغم من كل ذلك فقد ظلت المملكة في حاجة إلى قوات جديدة، بعد أن قضى عموري على قواته بإنهاكها في سياسته في مصر، بحيث لم تعد قادرة على تعزيز قوات لحماية الفرنجة في بيت المقدس[٢]"، وعلى الرغم من وجاهة رأي روهرشت عن موقف البابوية من الناحية الظاهرية فإن الصورة الكامنة تشير إلى عكس ذلك؛ لأن ألكسندر الثالث وعد فعلاً بمساعدة السفارة بيد أنه اكتفى بالكلام فقط، مثلما اتخذها ألكسندر فرصة ليكتسب دعماً جديداً سواء في الغرب الأوربي أم في الشرق اللاتيني، وكورقة رابحة جديدة في صراعه مع بربروسا، مما يقود إلى محاولة الاقتراب من نص منشور البابا ألكسندر الثالث للوقوف على ما قدمه للمملكة مقارنة بما وعد به.

إذ اقتصر رد فعل ألكسندر الثالث تجاه سفارة عموري على منشوره الذي وجهه إلى الغرب الأوربي الذي ناقش فيه أهمية الموضوع الذي يسعى عموري إلى تحقيقه

---

(١) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦. وأيضاً:

Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, colls.599-601; Alexander III, in Richard, pp.70-73; Jaffe-Lowenfeld, *Regesta,* no.11105. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.455-456.

(2) Rohricht, *Amalrich I*, p.456.

في الإبقاء على المملكة الصليبية، ومن جهة أخرى وجدها ألكسندر الفرصة التي أشار إليها الباحث لتأكيد الصفة الدينية للحروب الصليبية، ويتضح هذا من الأفكار التي حواها الخطاب مثل "لقد أوجدت الحكمة الإلهية وسائل من شأنها السماح للرحمة أن تمارس دورها في الأشياء الزمانية، وفي الوقت ذاته يصعب إيجاد مجال لانطلاق هذه الرحمة فرحاً من خلال المجد، من وجهة نظر الفضيلة، وأن تؤتي ثمارها من وجهة نظر الثواب إلا من خلال النجدة التي يجب أن نقوم بها من أجل كنيسة الشرق ولأجل أحباء المسيح الذين هم في مأزق، حتى نستطيع الدفاع عنهم وحمايتهم من هجمات الوثنيين، وحتى نستطيع أيضاً منع وقفهم لعبادة الرب في هذه الأماكن، ولكي نسمح - أيضاً- لفضيلة المؤاخاة أن تشرق بكامل قوتها[1]".

ثم أردف ألكسندر عن الضغوط التي تواجهها مملكة بيت المقدس، بحيث لا تستطيع مواجهتها قائلاً "إذ إنها إن تأخرت عليها الرحمة الأخوية سوف تتعرض لخطر بالغ، ويبدو أننا قد وصلنا في وقت حاسم يُكتب فيه لأعداء هذه الأرض مزيداً من القوة، تجعل من المستحيل على أهل هذه الأرض تحمل هجماتهم[2]". والواقع أن منشور ألكسندر الثالث يعكس مدى نجاح السفارة في تصوير حالة الفزع التي يعيشها الصليبيون في المملكة والإمارات، بل وتعكس مدى تأثر ألكسندر الثالث بما سمعه، وعليه كان تشجيعه لأبناء الغرب على التحرك بالنفس والمال لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وقد استصدر لأجل ذلك عدة قرارات بالعفو والغفران من العقوبات المفروضة على من سوف يشاركون في الدفاع عن المملكة لمدة عامين، إضافة إلى ضرورة إطاعة هؤلاء لأوامر الملك عموري وكبار رجال المملكة، ولكي يتحقق ذلك فعلى صاحب العقوبة إعادة الحق الذي سلبه إلى صاحبه حتى يحصل على البراءة التامة، أما من سيقيم عاماً واحداً فقط فلن يحصل إلا على نصف العفو، ثم تعهد ألكسندر بحماية أسر المسافرين وأملاكهم، كما ستُرفض أي دعوة قضائية ضد المسافرين حتى يعودوا وإن

([1]) Migne, Cartulaire dans Patrologie Latine, t.200, colls.599-600; Alexander III, in Richard, pp.70-71.

([2]) Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, coll.-600; Alexander III, in Richard, p.71.

ماتوا في الطريق فإنها ستسقط عنهم، وعلاوة على ذلك فإنه لن تُسدّدّ أية فوائد حتى يعود من اقترضها إلى وطنه سالماً "إننا نطلب من كل من يريد زيارة قبر المسيح - في ظل هذه الظروف - أن يقوم برحلة الحج تلك على سبيل التوبة، ودليلاً على الطاعة والإنابة من جميع الآثام، سواء أدركهم الموت في الطريق أم وصلوا إلى هدفهم، كل ذلك كي يتثنى لهم بعد كل مصاعب الحياة الدنيوية استحقاق الحياة الأبدية[١]".

ولكن إذا كانت هذه هي النية الطيبة التي حملها منشور ألكسندر الثالث تجاه المملكة فإنه لم يقم بتفعيل ما ورد في منشوره، فلم يشر أحد إلى المصير الذي آل إليه وضع الغرب بعد صدور هذا المنشور أو مدى التأثير الذي تركه في نفوس الغرب، أو إلى مدى تحرك الغرب لنصرة القبر المقدس طمعاً في كسب براءة ألكسندر، ويبدو أيضاً أن فردريك رئيس أساقفة صور - سفير عموري إلى الغرب - كان يظن أنه بانتظاره في الغرب على مدى عامين كاملين قد يلمس نتيجة ما لمنشور البابا، وعليه طال انتظاره لمدة عامين تاليين، ولكن كما قال وليم الصوري عاد "دون أن يحرز شيئاً من النجاح[٢]".

أما موقف لويس السابع ملك فرنسا فقد قرأ رسالة عموري وتأثر بالمخاطر التي أحاطت مملكة بيت المقدس، وسفح الدموع بيد أنه كان صريحاً مع السفراء - بخلاف هنري الثاني - حينما أخبرهم بعجزه عن إسداء العون في الوقت الراهن؛ لأنه كان يخشى أن يقوم هنري الثاني باستغلال فرصة غيابه لمهاجمة فرنسا، وحينما حاول فردريك - رسول عموري - خلال زيارته لهنري الثاني ودعوته للحملة الإصلاح بينه وبين لويس، حتى تختفي علة لويس السابع وبحيث يتآزرا لمساندة المملكة فقد احتفى به هنري الثاني يوماً بعد يوم حتى يمل وينصرف عن هذه القضية دون إعطاء رد صريح، وقد استهلك ذلك عامين من عُمر السفارة في أوربا بلا طائل[٣].

أما فردريك بربروسا فإن السفراء لم يذهبوا إليه سواء نصحهم البابا بذلك أم

([1]) Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, colls. 600-601; Alexander III, in Richard, pp.72.

([٢]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦.

([3]) Rohricht, *Amalrich I*, p.466.

لا؛ فما زال بربا روسا يعاني من هزيمته في روما على يد الطاعون الذي أصاب جيشه عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ، واضطر إلى الانسحاب شمالاً، في الوقت الذي استطاعت فيه المدن اللمباردية أن تزيد من عدد المدن المنضمة إليها بحيث وصلت إلى اثنتين وعشرين مدينة، وقام أساس سيادتها على السلام فيما بينها وتوطيد علاقاتها بألكسندر الثالث ضد عدوهم الأساس فردريك بربا روسا، وعلى هذا الأساس أيضاً كان ألكسندر الثالث يداعب مانويل كومنينوس بالحصول على اللقب الإمبراطوري الأوحد على مستوى الغرب كله، وهي ورقة رابحة ظل يضغط بها على بربا روسا كيما يتخلى عن سياسته العدائية تجاه ألكسندر الثالث، ومن هنا كان من العسير أن تستفيد السفارة من بربا روسا والبابوية في الوقت ذاته؛ لاستحالة ذلك من الناحية النظرية ولصعوبة كسب عطف البابا وتأييده[١].

هكذا تلاشت أهداف عموري من سفارته، وقد علق حسن حبشي على تقاعس الغرب عن المساعدة بكلمات بليغة "وأثارت هذه الذكريات نفسها جماعات عدة من الفرسان في مختلف الممالك الأوربية، فأحجموا عن خوض غمار حرب لم يعُد العامل الديني يثيرهم على القيام بها كما أثار آبائهم منذ نصف قرن"، وحينما فشلت البعثة علق على ذلك بقوله "وحينذاك أيقن صليبيو الشام أن الاستعانة بأوربا المسيحية والتفكير في معونتها إنما هو وهم باطل، وهيهات أن تقدم أوربا على ذلك ما لم تحظ بنصيب الأسد[٢]".

ولكن إذا كان عموري قد استغاث بأوربا عقب عودته مباشرة من مصر في بداية عام١١٦٩م/بداية ٥٦٤هـ في محاولة للحصول على تمويل لمشروعه في غزو مصر، وأنه لم يتلق رداً من الغرب حتى عامين تاليين، فإن حملته التي قام بها على دمياط بالاشتراك مع الإمبراطورية البيزنطية قامت في أكتوبر١١٦٩م/المحرم ٥٦٥هـ، وهذا يعني أنه لم يكن قد عرف بعد نتيجة سفارته إلى أوربا التي لم تصل إلى

([1]) Magdalino, *Manuel*, p.87.

انظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٢٠؛ عبدالعزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٨٢-٨٨.

([٢]) حسن حبشي: نورالدين،، ص١٣٤.

الغرب قبل يوليو وظلت تتابع محاولاتها الفاشلة فيما بعد، ولذا فإنه قد يقال إن عموري اضُطر إلى التحرك نحو مصر بمساعدة مانويل لمهاجمة دمياط، بيد أن ذلك غير أكيد؛ لأنه في الوقت الذي كان الأسطول البيزنطي يتحرك فيه من مياه الدردنيل إلى جزيرة قبرص في طريقه إلى عموري فإن الملك عموري كان يقوم بالمفاوضات مع مدينة بيزا وبالتحديد مع الأسطول البيزي، ربما لمغامرة ثانية في مصر وذلك في ١٧من سبتمبر١١٦٩م/ ٢٣من ذي الحجة٥٦٤هـ وهذا يدفع الباحث إلى محاولة الاقتراب من عملية المفاوضات لمعرفة هدفها وما تمخضت عنه وعلاقتها بحملة عموري على دمياط بالتعاون مع الأسطول البيزنطي.

إذ عقد عموري معاهدة تحالف مع بيزا في الأربعاء ١٧من سبتمبر١١٦٩م/٢٣من ذي الحجة٥٦٤هـ تلك التي انتهت بمنح البيازنة امتيازات واسعة النطاق في مصر حينما يتم الاستيلاء عليها، ويبرهن التوقيت الذي أصدر فيه عموري تلك الامتيازات ومداها على أنه رفض مرة أخرى غزو مصر بمساعدة بيزنطة؛ لأنه أراد مصر أولاً وأخيراً للفرنجة وحدهم[١]؛ إذ أصدر عموري امتيازاته لبيزا في ١٧من سبتمبر/٢٣من ذي الحجة في عكا، بينما كان الأسطول البيزنطي في مرسى جزيرة قبرص، ثم تقدمت إحدى فرق الأسطول إلى المملكة حاملة إلى عموري الإعانة المالية المتفق عليها طبقاً لمعاهدته مع مانويل في سبتمبر ١١٦٨م/ذي الحجة ٥٦٤هـ، والتي التزمت بيزنطة بمقتضاها بالإنفاق على جيش المملكة، ولذا فإن مناقشة عموري لامتيازات بيزا خلال هذه الأسابيع بالتحديد يُظهر أحد أمرين: إما أن عموري لم يكن يقصد أن يكون جاداً مع بيزا في منحه لها تلك الامتيازات أو أنه لم يرغب في غزو مصر بمساعدة بيزنطة[٢].

([1]) Rohricht, *Regesta*, no. 467; Müller, *Documenti*, p.15, no. 12. See also: Lilie, *Byzantium*, p.315.

وقد أفاد الباحث من التحليل القيّم الذي قدمه لِيلِي عن مشروع التحالف الصليبي البيزنطي في أعوام ١١٦٥-١١٧٧م.

([٢]) انظر:

Lilie, *Byzantium*, p.315.

ويُدعمّ الرأي الأخير تصرفات عموري خلال استعداداته للحملة مع بيزنطة، وخلال أحداث الحملة ذاتها، على ما سيتضح بعد قليل، ومن ناحية أخرى فإن امتيازاته التي منحها لبيزا تؤكد ذلك أيضاً؛ إذ حصلت بيزا على مبالغ نقدية، إضافة إلى حقوق وممتلكات في كل من القاهرة وبابليون ورشيد والإسكندرية ودمياط وتنيس، على أن تحصل على ألف دينار بيزنطي من مدينة بابليون، إضافة إلى حقوق بيزا في إقامة كنيسة ومنازل وفرن وطاحونة وحمام وامتيازات أخرى في المدن سالفة الإشارة، إضافة إلى إعفاء بيزا من التعريفات الجمركية في كافة الحملات التي تقوم بها المملكة على أي مكان[1]، فإذا دُقّق الإمعان في هذه الامتيازات، وجدها الباحث امتيازات وحقوقاً واسعة، وهذا يعني - من ناحية أخرى - أنه إذا كان عموري يقصد من وراء منحه إياها لبيزا لمجرد مساعدته أو إمداده بشكل ما في حملته مع بيزنطة وليس في حملة فردية للملك بدون بيزنطة فإن اتساع نطاق الامتيازات يصعب تفسيره.

وقد تنم امتيازات عموري للبيازنة على أنه يُلزمهم في المستقبل - حينما يقرر القيام بحملة فردية من جانبه وحده على مصر - بإمداده ومشاركته إياها، بيد أن أساس ذلك الفهم ضعيف؛ لأن عموري الذي أصدر تلك الامتيازات في ١٧من سبتمبر/٢٣من ذي الحجة لم يكن يعلم تطورات أحداث حملته مع بيزنطة على دمياط، ومن ثم مصير مصر في المستقبل القريب، وحقاً ربما كان عموري يدفع للبيازنة ليساعدوه في المستقبل حينما يضطر إلى طلب مساعدتهم، بيد أن ذلك لن يصل إلى حد تلك الامتيازات الواسعة[2].

ومن جهة أخرى فإن استعانة عموري بأسطول بيزا لن يكون ضرورياً وربما غير مؤثر إلا إذا تم غزو الدلتا، على اعتبار أن المساعدة التي تقدمها بيزا ما هي إلا مساعدة بحرية في المقام الأول، بيد أن الدلتا أو المنطقة الساحلية في مصر عموماً كان يفترض حصول بيزنطة عليها مقدماً بمقتضى معاهدة التحالف، فإذا ما تفاوض عموري مع البيازنة فإن ذلك يعني أنه لن يعتمد على المساعدة البيزنطية، ومن جهة

([1]) Rohricht, *Regesta*, no. 467; Müller, *Documenti*, p.15, no.12.

([2]) Lilie, *Byzantium*, pp.315-316.

أخرى سيكون من الحماقة أن يدفع للبيازنة بجانب حصولهم على الامتيازات الواسعة التي وعدهم بها، وذلك لأن حصة بيت المقدس في مصر من جراء مشاركة بيزنطة لها كانت محددة سلفاً وهو الجزء الداخلي من البلاد، وعليه فإن عموري لن يستفيد من المساعدة البحرية البيزية، ولأجل ذلك كله فإن موقف عموري كان قوياً خلال مفاوضاته مع بيزا في سبتمبر ١١٦٩م/ذي الحجة ٥٦٤هـ؛ لأنه يصعب قبول حجم تلك الامتيازات إلا إذا كان البيازنة يدركون أن عموري يعتمد عليهم كلية، وبناء على ذلك فقد طالبوه بتلك الامتيازات الكبيرة، وهذا يعني مرة أخرى أنه في سبتمبر ١١٦٩م/ذي الحجة ٥٦٤هـ، كان البيازنة يعرفون - أو واثقون تماماً - أن عموري ليس لديه نية الاشتراك مع البيزنطيين في غزو مصر، وأنه قرر عوضاً عن ذلك الاعتماد على البيازنة لغزو مصر مرة أخرى.

ثم يبقى التساؤل: ألا يحتمل حصول البيازنة على تلك الامتيازات على اعتبار أن يكونوا ضمن قوات عموري التي شاركت بيزنطة في الحملة على دمياط في نوفمبر ١١٦٩م/صفر٥٦٥هـ؟ لا يستطيع الباحث تأييد هذا الافتراض؛ لأن الأسطول البيزنطي - الذي كان عموري على علم بقوته وكثرة عدد سفنه - كان كافياً تماماً للحملة المنتظرة وسيكون من الغباء - في ظل ذلك - أن يقتسم عموري حصته في الأراضي المكتسبة والغنائم مع بيزا، إضافة إلى أنه سيكون من المشكوك فيه أن توافق بيزنطة على قبول مشاركة الأسطول البيزي في الحملة أو العكس، وأما المفارقة فهي عدم ذكر المصادر - التي عالجت الحملة على دمياط - مشاركة الأسطول البيزي في أي حصار لأي مدينة سواء دمياط أم تنيس، وهي المدن التي هاجمتها جيوش كل من عموري ومانويل خلال حملة عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ[1].

وهكذا استطاع عموري أن يُؤمّن من خلال امتيازاته لبيزا في سبتمبر

---

(1) لم ترد أي إشارة عن مشاركة البيازنة في حصار دمياط، أما الإشارة الوحيدة عن مشاركة ما سوى عموري ومانويل في عمليات حصار دمياط فإنها ظهرت عرضاً لدى القلقشندي عن خطاب للقاضي الفاضل وهي عن مشاركة الجنوية في الأحداث وليس بيزا. راجع في ذلك: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩-٩٠. وأيضاً:

Lilie, *Byzantium*, p.316.

١١٦٩م/ذي الحجة٥٦٤هـ، ليس مساعدة الأسطول البيزي لغزو مصر فحسب وإنما جعل نفسه مستقلاً عن سياسات بيزنطة في مصر، ويؤكد هذه السياسة التي رغب فيها عموري من وراء هذه الامتيازات اتجاهه إلى طلب المساعدة من الغرب - كما أسلف الباحث، مما يدل على إصرار عموري على غزو مصر بمساندة الغرب والبيازنة له دون وضع اعتبار للمشاركة البيزنطية[١]، بيد أن وصول الأسطول البيزنطي الضخم إلى المياه القبرصية وتنفيذ مانويل جانباً من المعاهدة بل وبأكثر مما وعد - على حد زعم وليم الصوري - صدم عموري بشدة؛ فلم يكن بإمكانه أن يصد أسطول كبير كهذا مثلما لم يملك إصدار أوامره إليه بالعودة من حيث أتى، بل لم يترك مانويل للملك عموري خياراً للتردد أو التراجع، حينما أوفى بأكثر مما وعد وجعل القيادة العامة للجيش والأسطول بيد عموري[٢]، وهنا ستكون إهانة حادة للإمبراطور البيزنطي، سيصعب الصفح عنها إذا ما تخلى عموري عن المشروع كلية، وقد تؤدي إلى تعريض تحالفه مع الإمبراطورية البيزنطية للخطر.

ولكن إذا كان عموري لا يرغب في المشاركة البيزنطية العسكرية له في مصر فما الداعي إلى استمراره في حملته عليها بمشاركتها عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ؟ وكيف رأى هو ومعاصروه خطورة الوجود البيزنطي في مصر على كيان المملكة؟ إن الحلقة المفرغة التي كان عموري يدور فيها، بحيث أضاع بها جل جهده وموارد مملكته، إنما حلمه في السيطرة على مصر، وسواء كان يرغب في دعم بيزنطة له فيها أم لا فإنه لم يكن في غنى عن تحالفه الدفاعي مع بيزنطة في شمال بلاد الشام؛ لأن تحركه إلى مصر يفرض تأمين بلاد الشام من تحركات نورالدين، وسرعان ما أجبرته الأحداث على ارتباط التحالف الدفاعي الذي يحمي بلاد الشام، بالتحالف الهجومي الذي تطور تلقائياً مع بيزنطة لمهاجمة مصر، ولم يكن بإمكان عموري الاحتفاظ

([1]) Lilie, *Byzantium*, pp.316-317.

([٢]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦. ويشير خونياتس في مسألة القيادة إلى أن الإمبراطور مانويل أصدر أوامره إلى إندرونيقوس كونتوستيفانوس قائد عام الأسطول البيزنطي بألا يتصرف بما لا يلائم الملك عموري، أو عدم اتخاذ أية إجراءات لا تتوافق معه. انظر:

Choniates, *Annales*, pp.91-93.

بواحد والتخلي عن الآخر دون تعريض أحدهما للخطر، ومن جهة أخرى فإن نظرة عموري إلى خطورة بيزنطة في مصر لم تكن ناجمة عن فراغ، وإنما عن حسابات كان بمقدوره أن يحشد دلالات عدة على ازدياد النفوذ البيزنطي في المملكة والإمارات؛ إذ سبق واعترف بوهيمند الثالث بسيادة الإمبراطور مانويل في القسطنطينية، مؤكداً ما ورد في اتفاق مانويل مع رينو دو شتيون عام ١١٥٩م/ ٥٥٤هـ بما له من حقوق في أنطاكية، وأعقب ذلك تعيين مانويل للبطريرك البيزنطي أثناسيوس فيها عام ١١٦٥م/ ٥٦٠هـ، وأما الأمر الأكثر خطورة فإنما حدوث عدة دلالات تشير إلى ازدياد النفوذ البيزنطي في مملكة بيت المقدس ذاتها بشكل لافت للنظر، لا لأن عموري تزوج من مارية البيزنطية فحسب وإنما لدلالة ما قام به مانويل كومنينوس من عمليات إصلاح وترميم في الأراضي المقدسة عام ١١٦٩م في المؤسسات الدينية عموماً والأرثوذكسية خصوصاً.

إذ يبدو أن الإمبراطور مانويل حرص على الحصول على حقوق خاصة برعاية المؤسسات الأرثوذكسية في الأراضي المقدسة خلال مفاوضاته مع عموري التي جرت خلال عامي ١١٦٧-١١٦٨م/٥٦٣-٥٦٤هـ، وربما مع سلفه بلدوين الثالث؛ إذ يشير هاريس Harris إلى أن مانويل استطاع تأمين الاعتراف به بوصفه قائداً للعالم المسيحي الشرقي، حينما حصل على حقه في المشاركة في إعادة بناء الكنائس والأديرة اليونانية وزخرفتها في الأراضي المقدسة، بما في ذلك كنيسة القبر المقدس وكنيسة الميلاد في بيت لحم[1].

ومن ناحية أخرى سمح عموري للكهنة البيزنطيين أن يؤدوا طقوس عبادتهم يومياً في كنيسة القبر المقدس، ويستدل هاريس على ذلك بالنقش الموجود في كنيسة

([1]) عن كنيستي بيت لحم والميلاد انظر:

Anonymous Pilgrims, L-VIII (11th and 12th Centuries) PPTS., Trans. by. Aubery Stewart, M.A, (London, 1894), pp.6, 14, 21-22, 27, 35, 50-55. See also: Macpherson, J.R, "The Church of the Resurrection, or of the Holy Sepulcher", in *HER.*, vol, 7, (1892), pp.675-688.

الميلاد في بيت لحم[١]، ذلك أن مانويل قام بإعادة تزيين الفسيفساء وأعمال الموزايكو في كنيسة الميلاد، وقد ترك لنا الفنان إفرايم Ephraim الذي قام بهذا العمل نقشاً يحتوي على نصين باللغتين اليونانية واللاتينية بالمعنى نفسه، وقد اتخذ من النقش اليوناني الذي ذكر فيه "تم العمل الحالي بواسطة الفنان الراهب إفرايم، العامل بالموزايكو ورسمها، في فترة حكم الإمبراطور العظيم مانويل بورفيروجنتيوس[٢] Porphyrogenitus كومنينوس، وفي أيام ملك بيت المقدس العظيم، مولانا عموري، وفي أسقفية المبجل القويم راؤول Raoul أسقف بيت لحم المقدسة عام ١١٦٩م[٣] "، أقول اتخذ منه هاريس وسيلة لتأكيد سيادة الإمبراطور مانويل كومنينوس على الأراضي المقدسة سيادة علنية حسية، علاوة على إصلاحاته الترميمية التي أشار إليها الرحالة يوحنا فوكاس في كنيسة القبر المقدس برعاية الإمبراطور مانويل أيضاً وفي عصر الملك عموري[٤].

ويبدو أن مانويل استطاع إعادة بناء - أو على الأقل زخرفة - العديد من الأديرة الأرثوذكسية اليونانية في المملكة ومن بينها دير يوحنا بابتست Baptist في وادي الأردن ودير القديس يوثيميوس في بادية يهودا ودير القديس إلياس st.Elias قرب بيت لحم، ويُرجح أيضاً وجود ممثل للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية في مملكة بيت المقدس في هذه السنوات، بيد أنه لا يوجد شيء محدد حول قوتها بما يتيح إثباته، وذلك في ظل صمت المصادر[٥]، كما بدا النفوذ الديني الأرثوذكسي قوياً في المملكة في هذه

([1]) Harris, Byzantium, pp.109-110.

([٢]) أي المولود في العباءة الأرجوانية .

([٣]) عن النقشين اليوناني واللاتيني كاملين انظر:

Hamilton, *The Church of Nativity of Bethlehem*, (Jerusalem, 1947), pp.56-57; De Vogue, *Les Eglises,* p.99.

([4]) Joannes Phocas, *The Pilgrimage of Joannes Phocas in the Holy Land in the year 1185 A.D*, in:PPTS., trans. by Aubery Stewart, M.A., Hanover Square, (London,1896), p.19.

([٥]) وقد اعتمد لِيلِي على سجل به اسم رئيس أساقفة يوناني في مدينة غزه وقسيس يوناني في كنيسة القبر المقدس. وعن الوثيقة التي اعتمد عليها لِيلِي انظر:

obeikandl.com

السنوات من خلال حقيقة أن ليوناتيوس Leontius الذي حمل لقب بطريرك بيت المقدس اليوناني - في المنفى - بعثه مانويل حوالي عام ١١٧٠م/٥٦٦هـ إلى بيت المقدس ربما لوضع قدمه داخل المملكة من خلال الكنيسة الأرثوذكسية، بيد أنه لم يستطع البقاء واضطر للعودة إلى بيزنطة بعد قليل[١]، وقد اتخذ ماير من وجود هؤلاء الكهنة اليونانيين في بيت المقدس، ومن أعمال الترميم والزخرفة دليلاً على ما لبيزنطة من سيادة في المملكة، حتى وإن كانوا يعملون تحت إمرة البطريرك اللاتيني[٢].

والواقع أن المسألة ربما تكون غاية في البساطة إذا أخذ الباحث على عاتقه أن الإمبراطور مانويل لم يستطع التدخل في إدارة شئون مملكة بيت المقدس الداخلية وتوجهات سياستها الخارجية، وبمعنى آخر يُعدُّ هذا التدخل البيزنطي الذي يبرزه بعض المؤرخين على أنه اعتراف حسي رمزي من عموري بسيادة مانويل، ربما كان قوياً في مفعوله أكثر مما حدث من اجتماع مانويل بعموري في بيزنطة فيما بعد عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، بيد أن بعض هؤلاء يُقرّون أن المودة بين اللاتين واليونانيين لم تزد على ذلك خلال فترة وجود اليونانيين في القبر المقدس[٣].

ومن جهة أخرى يُشير آخرون إلى أن ثمة حدوداً لما يُسمّى بسيادة الإمبراطور البيزنطي، وذلك لأنه إذا كان مانويل قد فشل في التدخل المباشر في أنطاكية - في شئون حكومتها وتوجهاتها - باستثناء مسألة البطريرك عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، وأنه لم

Rohricht, *Regesta*, no.502.

(١) انظر:

Runciman, "The visit of King Amalric I to Constantinople in 1171," (eds.) B.Z. Kedar, H. Mayer, and R.C.Smail, Outremer: *Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer*, (Jerusalem, 1983), p.157; Lilie, *Byzantium*, p.209.

(2) Mayer, "Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem", (eds.) B.Z. Kedar, H. Mayer, and R,C.Smail, Outremer: *Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer,* (Jerusalem, 1983), pp.190-192.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥١٦.

يتم الاعتراف بما لبيزنطة من حقوق سيادية في أغلب الأحوال إلا بوقوف الجيش البيزنطي أمام أسوارها، فإنه بالأحرى كان عاجزاً عن تحقيق ذلك في بيت المقدس ذاتها، خصوصاً أن النص اللاتيني المنقوش في كنيسة الميلاد، يُمجّد الملك عموري بذكره قبل ذكر مانويل، مثلما صدّر النص اليوناني اسم مانويل ثم اسم عموري بعدئذ، ويضاف إلى ذلك ملاحظة اصطباغ أعمال مانويل في تلك الفترة، وتحديداً عام ١١٦٩م/٥٦٤-٥٦٥هـ بصبغة دينية في أعمال بر وإصلاح وعناية بالمقدسات[١].

ولذا فإنه ربما كان لامونت محقاً في اعتبار ما قام به مانويل في الأراضي المقدسة إنما أعمال نابعة عن رجل تقي، متدين، يسعى لفعل الخير، وأنه قدمها هدية، بوصفه أميراً ورعاً وكريماً إلى الملك عموري وإلى الكنيسة في الوقت ذاته التي تعد واحدة من أهم المقدسات التي تحتفي بها المسيحية، بل عَدَّ لامونت ما قام به مانويل نوع من الوساطة والمساعدة المجردة، ويبرهن الوقت الذي قَدّمَ فيه مانويل تلك المساعدة على ذلك؛ إذ كانت مفاوضاته مع البابا ألكسندر الثالث آنذاك في تقدم لأجل اتحاد كنائس الشرق والغرب، وجاءت الزخارف التي قام بها مانويل انعكاساً للتفاهم القائم بين الكنيستين أو الدولتين[٢].

ومما يدعم اتجاه لامونت حاجة مانويل إلى الظهور أمام الغرب وعلى رأسه البابوية وكأنه درع المسيحية في الشرق، وحامي حمى الكيانات الصليبية في بلاد الشام، بحيث يسهل عليه الحصول على نتائج أفضل في مفاوضاته مع ألكسندر الثالث حول التاج الإمبراطوري الذي يكفل لمانويل تحويل التهديد الكامن في الحملات الصليبية في المستقبل إلى صالح بيزنطة، وبذا يستطيع إقامة صلة بين تحركات مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية ومصالح إمبراطوريته، وقد ظهرت بعض ملامح ذلك بوضوح في حملته مع عموري على مصر عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، حينما بدا من كتابات كيناموس وخونياتس أن الإمبراطور استغل التحرك الصليبي لاستعادة

---

(١) عن الأعمال الخيرية التي قام بها مانويل في ذلك العام والأعوام التالية انظر:
Kinnamos, *Deeds*, pp.207-208.

(2) La Monte, *To what extent*, pp.262-264.

إمبراطوريته في الشرق وبخاصة في مصر[1].

ومن الناحية الواقعية تدلل تصرفات عموري حيال بيزنطة على أنه ربما لم يسمح بقيام بيزنطة بما قامت به إلا لكونه عملاً تطوعياً لصالح الرعايا الأرثوذكس في المملكة، أما فهمه لم يمكن أن يُؤَوّل على أنه سيادة بيزنطية، فإنه كان يرفضها تماماً حتى تلك اللحظة، بما بدا من حملته هذه؛ لأنه لم يحتمل إقامة البيزنطيين على مقربة منه في مصر، فكيف يقبل سيادتهم عليه في بيت المقدس!!!

وأياً ما كان الأمر فإن ما قام به مانويل من أعمال ترميمية وزخرفية يُعبّر عن النفوذ الذي وصل إليه البيزنطيون في الأراضي المقدسة، سواء كان دبلوماسياً أم دينياً، كما يعكس مقدار ما رآه عموري خطراً يمكن أن يُفعّلهُ الوجود البيزنطي في مصر بما بدا من التصرفات التي ترجمها عموري تلقائياً بحيث لم يكن بإمكان واحد مثل وليم الصوري أن يفهمها أو أن يعبر عنها بقلمه؛ لأنه مثله مثل المؤرخين البيزنطيين لم يعيروا هذه القضية انتباههم، وكأنها ليست بالعمل الذي يمكن أن يُقارن في أهميته آنذاك بأعمال أخرى لم يترددوا في الاستطراد في سرد تفاصيلها.

على أية حال وصل الأسطول البيزنطي إلى قبرص، وبعث بأحد قادته ويدعى تيودور مافروزوميس Mavrozomes ومعه ستين سفينة ثلاثية المجاديف Triremes، والإعانة المالية المتفق عليها للملك عموري، ولإعلامه بأن الأسطول البيزنطي في طريقه إلى عكا، هنا كان رد فعل عموري غريباً؛ لأنه لم يستجب سريعاً للتحرك، بل لمقابلة إندرونيقوس كونتوستيفانوس القائد العام للأسطول البيزنطي إلا بعد مرور بعض الوقت[2].

وبينما يُبدي وليم الصوري اندهاش الملك عموري من وصول الأسطول

([1]) Kinnamos, *Deeds*, pp.208-209; Choniates, *Annales*, pp.91-94.
انظر أيضاً: هسي: العالم البيزنطي، ص١٩٦-١٩٧؛ عبدالعزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٨٤.

([2]) Choniates, *Annales*, pp.91-92.

البيزنطي إلى قبرص، وكأن الملك لم يكن مستعداً لاستقبال الأسطول البيزنطي[١]، تُبدي المصادر البيزنطية رأياً آخر، عن سبب تحرك مانويل هذه المرة بالذات وعن رد فعل عموري؛ إذ أشار كيناموس عن سبب الحملة بأن الإمبراطور شحن أسطوله بالرجال والمؤن والإمدادات وبعثهم إلى مصر، وذلك لأن حكامها رفضوا دفع الضريبة التي كانت تدفعها مصر للرومان في العصور السالفة، وفي الوقت ذاته لا يشير كيناموس في هذه المناسبة إلى أي تنسيق مع الملك عموري، وإنما جاءت الإشارة تالية[٢].

ويضيف خونياتس إلى عوامل الطمع في ثروات مصر الاقتصادية تفسيراً للحالة النفسية للملك عموري حينما جاءته أنباء الأسطول؛ إذ يبدو أنه كان مضطرباً بشدة، ولذا فإنه فضّل التفكير ملياً، وقد ترتب على ذلك مماطلته وتسويفه، وبعد تأخير مطول في عملية المفاوضات، بعث عموري إلى إندرونيقوس- قائد الأسطول - الذي كان ناقماً بشدة على المماطلة للحضور إلى بيت المقدس، ومرة أخرى ظهر تردد عموري وكان تعليله قائماً على أساس أنه ما زال يقوم بتجنيد فرق جيشه، ولاريب أن السبب الرئيس في ثورة إندرونيقوس أنه كان قلقاً على احتياطي المؤن والإمدادات التي كادت تُستنزف خلال مدة بقاء الأسطول في البحر، ثم رفض عموري مرة أخرى الموافقة على نقل جيشه على السفن البيزنطية بحجة أن السير براً أكثر أمناً له[٣].

أما المصادر العربية فإنها أبدت اتجاهاً واحداً يكاد يكون رواية واحدة تناقلتها كافة المصادر مع اختلاف في تفسير الرواية ذاتها، بيد أن الاتجاه واحد تقريباً حيث ربطت مباشرة بين فشل حملة عموري على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ وقيام صلاح الدين نائباً فيها عن نورالدين في بلاد الشام، وبين رؤية الفرنجة للخطورة التي تنبع عن ذلك على أملاكهم، ولذا فإنهم راسلوا الغرب الأوروبي واستغاثوه بمجموعة من الرهبان والقسوس على أمل أن يُسعفوهم بقوة عاجلة للاستيلاء على مصر، بيد أن ثمة

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦.

(2) Kinnamos, *Deeds*, p.208.

(3) Choniates, *Annales*, pp.91-92.

خلطاً أو عدم دقة في بعض أجزاء الرواية العربية؛ لأنها جعلت الغرب هو الذي قام بإرسال الجيش والأساطيل وبخاصة أهل الأندلس وصقلية، بينما لم يكن الأمر كذلك، كما أطلقت عليهم الرواية ذاتها اسم الروم خلال عملية التحرك، ولكن الواقع يشير إلى أن استغاثة الغرب لم تأت بنتيجة في تلك الحملة وبخاصة أن رسل الملك عموري وصلوا إلى الغرب في يوليو١١٦٩م/شوال٥٦٤هـ، بينما كانت أساطيل بيزنطة تتحرك صوب المملكة للتوجه نحو مصر(١).

ولاريب أن تردد عموري واضطرابه كان له ما يبرره؛ لأنه اعتقد أن تحركه إلى مصر في العام السابق جعله حراً من تعهداته مع بيزنطة، بيد أن معاهدته معها ما زالت سارية المفعول ولم يكن بإمكانه تجاهل ما ورد فيها، ولذ فإن اضطرابه كان ينُم عن أمر آخر في نفسه، ويُشير عمران في هذا الصدد إلى أن عموري كان أقل حماساً من مانويل في الإعداد للحملة، بدلالة أن مانويل أرسل بأكثر مما تضمنته المعاهدة في سبتمبر ١١٦٨م/ذي الحجة ٥٦٣هـ، أما عموري فكان متأخراً، بسبب إعداده لشئون المملكة ووسائل الدفاع عنها، والقوات التي سيأخذها معه إلى مصر - على ما قال وليم الصوري - وهو التبرير الذي قدمه خونياتس أيضاً لمماطلة الملك، بيد أن عمران يُضيف أن عموري كان يخشى من انفراد بيزنطة بمصر بسبب تفوقها الحربي، وذلك ما جعله متردداً لبعض الوقت في الانضمام للحملة، ثم يرد عمران على مخاوف عموري بأن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يهدد عموري بقدر تهديده للمسلمين، وهذه الأخيرة هي التي جعلت عموري يُشارك في الحملة، بحيث يضمن ألا تقع في أيدي المسلمين، وحتى لا تقع في أيدي البيزنطيين إذ ما قرروا الانفراد بالحملة ومهاجمة مصر(٢).

ولكن إذا كان البيزنطيون ينوون الغدر بالملك عموري في مصر، فلماذا لم

---

(١) انظر: ابن شداد: النوادر، ص٢٧؛ ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٥؛ ابن خلدون: تاريخه، جـ٤، ص١٦٨-١٦٩.

(٢) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٨. وأيضاً:

Choniates, *Annales*, pp.91-92.

وعن نظرية محمود عمران راجع: محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣٠١-٣٠٢.

يتحركوا إليها بمفردهم، وبخاصة أن أسطولهم كان قوياً بما يكفي للقيام بالحملة، ربما دون انتظار تحرك عموري؟ حقاً كان الملك عموري مهماً في مصاحبة الحملة؛ لأنه أدرى بظروف وسائل الدفاع عن مصر وبطبيعتها بحكم تجاربه السابقة فيها، ومن ناحية أخرى فإن المعاهدة كانت تُلّزم مانويل بضرورة انتظار مرافقة عموري، ولكن مخاوف الأخير حيال انفراد البيزنطيين في مصر وبحيث لا يكون للبيزنطيين غالب السيطرة بسبب قوة أسطولهم[١]، هذا الرأي غير دقيق وذلك لأن بقاء البيزنطيين في انتظار الملك عموري ما يقارب شهرين، ونفاذ احتياطي طعامهم يدل على أن مانويل لم يكن مستعداً لغزو مصر بدون عموري، وفي الوقت ذاته كانت القيادة العامة للأسطول والجيش في يد الملك عموري، ولم يُصرَّح لإندرونيقوس القائد العام للأسطول البيزنطي باتخاذ أية إجراءات تخالف إرادة الملك عموري[٢]، ومن ثم فإنه كان بإمكان عموري إذا ما رأى خطورة من الجانب البيزنطي أن يتصرف على نحو يحبط تلك الخطورة[٣]، بيد أن عموري كان في حاجة إلى بعض الوقت كي يُعدّ الترتيبات اللازمة للدفاع عن المملكة في غيابه وكان يتفاوض مع البيازنة حتى ١٧من سبتمبر١١٦٩م/٢٣من ذي الحجة ٥٦٤هـ، ومن جهة أخرى فإن خسائر الاسبتارية كانت كبيرة، وكان موقف البارونات حيال مشاركة بيزنطة واضحاً منذ حملة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ، وأما الداوية فإنهم كانوا على موقفهم القديم، بعدم المشاركة في غزو يُشارك فيه الاسبتارية وبخاصة في مهاجمة مصر بالذات[٤].

وأياً كان أمر استعدادات عموري فالواضح أنه تأخر بالفعل عن التحرك مع الأسطول وذلك ما يدعو للاقتراب من الوقت الذي حدثت فيه تلك الإجراءات، من تحرك الأسطول البيزنطي والمدة التي بقاها في البحر في انتظار عموري حتى تحرك الجميع إلى مصر؛ إذ تحرك الأسطول البيزنطي نحو قبرص بعد تفقد مانويل له في Melivoton من مياه الدردنيل في ١٠من يوليو ١١٦٩م/١٤من شوال ٥٦٤هـ، ومنها

(1) Schlumberger, *Campagnes*, pp.258-261.

(2) Choniates, *Annales*, pp.91-92.

(3) Lilie, *Byzantium*, p.317.

(٤) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٢٣-٦٢٤.

إلى كويلا Koila ومنها رأساً إلى جزيرة قبرص، ومن هناك بعث إندرونيقوس قائد الأسطول بقائده تيودور مافروزوميس، إلى الملك عموري لإعلامه بوصول الأسطول، وكان من الطبيعي أن يتحرك الأسطول تلقائياً إلى موانىء المملكة في صور ثم إلى عكا، بيد أن ذلك لم يحدث بل استمرت مماطلة عموري بحيث لم يدخل الأسطول في ميناء صور إلا في نهاية سبتمبر ١١٦٩م/أوائل المحرم ٥٦٥هـ.

ولم يتحرك عموري ذاته إلى مصر قبل منتصف أكتوبر، ذلك أنه أعطى أوامره لقواته بالتجمع في عسقلان في ١٥من أكتوبر/٢٢من المحرم، وفي اليوم التالي - أي في السادس عشر من أكتوبر/الثالث والعشرين من المحرم - تحرك عموري براً نحو مصر، حيث وصل إلى الفرما بعد تسعة أيام، ثم أضاع يومين تاليين في الوصول إلى دمياط بسبب نوبات المد التي أغرقت المنطقة الساحلية وأعاقت حركة السير، ثم أضاع ثلاثة أيام أخرى أمام المدينة في انتظار الأسطول البيزنطي الذي أعاقته الرياح الهائجة عن الرسو في ميناء المدينة[1]، وهذا يعني أن الملك عموري والأسطول البيزنطي لم يشرعا في العمليات الحربية حول دمياط إلا في ٣٠ من أكتوبر١١٦٩م/٧ من صفر٥٦٥هـ.

وبمعنى آخر تسبب عموري في تأخير الأسطول البيزنطي في عرض البحر ما يقرب من شهرين دون أي نشاط حربي، وعليه فإن ما يسوقه وليم الصوري عن أن الملك كان يقوم بإعداد وسائل الدفاع عن المملكة فإنه مقارنة بحملة عام ٥٦٤/١١٦٨هـ التي تحرك بها عموري وحده إلى مصر، لم تستغرق استعداداته سوى أقل من شهر، ربما عشرون يوماً، مع الأخذ في الاعتبار أنه كان عائداً من مصر في

---

(1) عن وقت تحرك الأسطول من بيزنطة واتصاله بالملك عموري وتحرك الحملة إلى دمياط. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦-١١٧. وأيضاً:

Choniates, *Annales*, p.91.

وانظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٥، الباهر، ص١٤٣-١٤٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٤٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٤١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٧.

حملته الثالثة في ٢١من أغسطس ١١٦٧م/٤ من ذي القعدة ٥٦٢هـ، وتحرك إلى مصر في حملته الرابعة في أكتوبر١١٦٨م/المحرم٥٦٤هـ، وهي مدة متقاربة لحد كبير، وهذا يعني مرة أخرى أن مماطلة الملك كانت بلا عذر، أو على الأقل لم تكن استعداداته هي العامل المسيطر على تأخيره في التحرك بالحملة.

وأما دوافع الملك الحقيقية فتكمن في دافعه الأساس الذي جعله يتحرك إلى مصر دون انتظار بيزنطة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ؛ لأن عموري كان يرى أن استيلائه على مصر بمساعدة بيزنطة يُقوّي من وجود بيزنطة في مصر، ومن ثم فقد يؤدي مع عوامل أخرى إلى تطويق المملكة الصليبية، وهذا ما دفعه إلى القيام بحملته السابقة على مصر، كما أنها الظروف ذاتها التي دفعته إلى الاستغاثة بالغرب الأوربي فور عودته من مصر فاشلاً، وكذا جعلته يتفاوض مع البيازنة للقيام بحملة أخرى لمهاجمة مصر، وفي ظل هذه الاعتبارات قدم الأسطول البيزنطي ولم يكن في استطاعة الملك إعادته أو تجاهل وجوده؛ لأن أياً من هذه التصرفات سوف يُغضب الإمبراطور، هذا في الوقت الذي أصبح فيه عموري في أمس لحظاته الحرجة للتحالف الدفاعي في شمال بلاد الشام الذي تُوفّره له الإمبراطورية البيزنطية، ولذا فإن التخلي عن تحالفه الهجومي مع بيزنطة في مصر يعني مغامرته بتحالفه الدفاعي معها وعليه قرر عموري بالإيجاب في نهاية الأمر، ولذا فإنه كان يفكر في ذلك طوال مدة بقاء الأسطول في عرض البحر، في أن يماطل الأسطول ويعيق حركته بعدم إعطائه روح المبادرة وإنقاص مؤنه التي تكفي لثلاثة أشهر فقط، وطالما كانت القيادة العليا في يد الملك، فإنه يستطيع إجهاض أية محاولة مستقلة على طول الأحداث، وهكذا حتى تفشل الحملة من ذاتها[1].

وهنا يمكن مناقشة بنود المعاهدة التي أبرمها وليم الصوري مع مانويل كومنينوس في العام السابق، وذلك لأن خروج الأسطول البيزنطي كان بناء عليها، وسوف تسعف المادة العلمية المتاحة في خضم أحداث الحملة، والمتناثرة في بطون المصادر، في الوصول لصياغة تقريبية لما كانت عليه معاهدة وليم الصوري مع

([1]) Lilie, *Byzantium*, p.316-318; Magdalino, *Manuel*, p.75.

الإمبراطور. ففي بداية حديث وليم الصوري عن الأسطول البيزنطي، أشار إلى أن الإمبراطور البيزنطي أوفى بأكثر مما وعد، ذلك أن الإمبراطور أرسل أسطولاً ضخماً يشتمل على حد إحصاء وليم الصوري ما يقرب من مائتين وعشرين سفينة أو ثلاثين، منها مائة وخمسون شونية للقتال، وستون سفينة مسلحة تسليحاً جيداً، ومعدة لنقل الخيل والأسلحة، إضافة إلى عشر وربما عشرون قارباً كبيراً لحمل المؤن والميرة[١].

وبينما لم يذكر كيناموس شيئاً عن تفاصيل قوة الأسطول مكتفياً بأن الإمبراطور أمر بجمع أسطول كبير وحمّلهُ بالرجال والأسلحة والمؤن وبعثه إلى مصر[٢]، إذا بخونياتس يقدم وصفاً تفصيلياً يكاد يشابه وصف وليم الصوري؛ إذ يتكون الأسطول لديه من مائتين وست وسبعين سفينة، مائتان من النوع الطويل وعشرة من النوع المسمى بالدراخيوم Dyirachium وستة أخرى سريعة الإبحار لحمل الرجال، علاوة على ستين سفينة ثلاثية المجاديف Triremes، هي التي بعث بها قائد الأسطول إلى عموري[٣]، وبالمقارنة يتضح أن وصف خونياتس يزيد قليلاً عن وصف وليم الصوري، بيد أنه يمكن الاعتماد على وصف وليم وخونياتس معاً، خصوصاً أن وليم الصوري لم يكن في المملكة في ذلك العام، ولكن حينما عاد تقصى معلوماته عن الملك وكبار قادته[٤]، أما خونياتس فكان أحد رجال البلاط الإمبراطوري، ولم يكن من

---

(١) راجع الوصف الذي قدمه وليم الصوري للأسطول والجيش. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦، ١٢٨.

وبالرغم من أن وليم وصف ما قدمه الإمبراطور في البداية بأنه كان أكثر مما وعد به الإمبراطور في معاهدته فإنه عاد يندد بالإمبراطور في نهاية روايته عن الحملة، متهماً إياه بعدم إرساله للمنحة المالية التي وعد بإرسالها، وبأنه تسبب بذلك في تعريض جيشه للمجاعة، مما كان سبباً في فشل الحملة.

(٢) تُعد رواية كيناموس عن الحملة مقتضبة مقارنة بما قدمه كل من وليم الصوري وخونياتس. انظر:

Kinnamos, *Deeds*, pp.208-209.

(3) Choniates, *Annales*, p.91.

(٤) يُقر وليم الصوري نفسه أنه كان في الغرب في ذلك الوقت، وأنه تتبع بنفسه أهم ما حدث في تلك

النوع المتأثر بالسلطة، ولاريب أنه حصل على معلوماته من أرشيف البلاط وكبار رجال الإمبراطورية وقادتها[1]، أما المصادر الإسلامية فإنها ذكرت أرقاماً ضخمة للأسطول تتراوح بين المئات والآلاف، بما يتضح من تقديرها لعدد السفن بألف مقاتل وحامل، وللجنود بمائتي ألف فارس وراجل، علاوة على الآلات الضخمة والمنجنيقات وغيرها، وهي تقديرات جزافية يصعب الاعتماد عليها[2]، وبشكل ما يمكن الاعتماد على رؤية كل من خونياتس والصوري معاً، لشدة تقاربهما.

ويبدو أيضاً أنه اتفق على اقتسام مصر مناصفة بين عموري ومانويل، وأنه كان مُتَوَقعاً أن تؤول المناطق الساحلية للإمبراطورية البيزنطية[3]، ويبدو أيضاً أن المعاهدة لم تحدّد مدينة معينة لمهاجمتها في مصر، وإنما كان اختيار مكان الهجوم مرهوناً بحسن تصرف عموري الذي كانت قيادة الحملة موكولة إليه، وربما كان ذلك أيضاً أحد بنود المعاهدة، وهو أن تكون القيادة له، أما عن دمياط فإن الراجح أن عموري هو الذي حدد ذلك خلال مفاوضاته مع إندرونيقوس في المملكة[4].

ويُرجّح أيضاً تعهد مانويل بسداد نفقات الجيش كاملاً، سواء جيشه أم جيش المملكة، والراجح أن عموري حصل على نصيبه كاملاً قبل تحركه من المملكة، بحيث قلت حصة الأسطول البيزنطي منها؛ لأن الإمبراطور وعد بإرسال باقي ما اتفق عليه،

الحملة، وتمثلت مصادره في الملك عموري وكبار قادته، وكان وليم الصوري يُعلق أهمية كبيرة على هذه الحملة، بيد أن نتائجها جاءت مخيبة لجميع الآمال. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٨.

([1]) Choniates, *Annales*, pp.X-X11, 32, 39.

([2]) اتسمت تقديرات المصادر الإسلامية في وصفها للحملة بالمبالغة، بما يتضح من الوصف الوارد بالمتن، وقد وقع جاك دي فيتري هو الآخر في المبالغة حينما وصف جيش عموري بأنه لا حصر له. انظر:

القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩ (عن خطاب للقاضي الفاضل)؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٧؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٤١؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٦١.

([3]) Kinnamos, *Deeds*, p.209.

([4]) Kinnamos, *Deeds*, 208; Choniates, *Annales*, p.92.

وبسبب ذلك تعرضت قواته للمجاعة، وبسبب ذلك أيضاً صب وليم الصوري جام غضبه على الإمبراطور الذي لم يرسل المال الذي سبق ووعد بإرساله[١]، إضافة إلى أن الإمبراطور أمد الأسطول بمؤن ثلاثة أشهر فقط، ربما لأنه اعتقد أن العمليات الحربية ستسير بسرعة وبعدها يمكنه الاعتماد على موارد مصر الداخلية، وهذا يفترض أيضاً أن الإمبراطور مانويل لم يكن على يقين من قيام عموري بحملته على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ التي انتهت بعودة عموري إلى المملكة فاشلاً في ٢من يناير١١٦٩م/غرة ربيع الآخر٥٦٤هـ.

أما عن دور الملك عموري أو مسئوليته في المعاهدة فالراجح أن مانويل كان سخياً بحيث قام بكل شيء تقريباً، ولم تمد المصادر الباحث بشيء عن حجم قوات عموري أو تشكيلاته وإعدادته أو مؤنه، ولكن عمران يشير إلى أن جيش عموري ربما لم يكن يقل عن جيش مانويل الذي قُدّر بحوالي خمسة وعشرين ألف مقاتل[٢]، ولكن لم يقف الباحث على المصدر الذي اعتمد عليه عمران في إقراره لذلك الرقم، وتوحي الإشارات العابرة للمصادر كافة بأن عدد قوات الجيش كانت كبيرة، وبخاصة إذا ما عُقدّت مقارنة بين السفن البيزنطية وما يمكن أن تحمله من جنود.

وثمة إشارة عابرة أوردها القلقشندي عن خطاب للقاضي الفاضل من صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، يسرد فيه أهم أعمال صلاح الدين، وقد ذكر خلال إشارته لحصار الحلف الصليبي البيزنطي لدمياط أن الجنوية كانوا يشتركون في عمليات الحصار بجانب الروم والفرنجة[٣]، والحقيقة أنها الإشارة الوحيدة التي وقف عليها الباحث التي تشير إلى ذلك، حقاً إن الجنوية كانوا على علاقة طيبة للغاية بالإمبراطور البيزنطي، واستطاعوا الحصول على مكاسب كبيرة على حساب البنادقة في القسطنطينية ذاتها الذين انقلب عليهم مانويل[٤]، بل إن عمران وضع ضرب مانويل

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦-١٢٨.

(٢) انظر: محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١٣-٣١٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩-٩٠.

(٤) قامت سياسة مانويل في هذه السنوات تجاه المدن التجارية الإيطالية، بيزا وجنوه والبندقية على

لتجارة البنادقة في مصر "في مقتل" كأحد العوامل المهمة في قيامه بتلك الحملة[١]، بيد أن عمليات الحصار والأحداث التي قدمتها غالبية المصادر لا تشير إلى أي مشاركة للجنوية بخلاف القلقشندي.

على أية حال وصلت القوى المتحالفة إلى مدينة دمياط في ٢٧من أكتوبر/٤من صفر٥٦٥هـ، وكان الأسطول البيزنطي قد تمكن خلال ذلك من الاستيلاء على تنيس Tenesion دون مشقة، ثم هاجم المنطقة المجاورة[٢]، وبعد ثلاثة أيام كانت القوى المتحالفة أمام أسوار دمياط في ٣٠ من أكتوبر/٧ من صفر؛ ولكن لماذا دمياط على الرغم من وجود الإسكندرية ورشيد على ساحل البحر نفسه؟

لم تكن مهاجمة دمياط[٣] بالأمر الجديد على الأساطيل البيزنطية والقبرصية والصقلية، بل إنها هي ومدينة تنيس كثيراً ما تعرضتا للهجوم مرات عديدة وذلك منذ الأيام الأولى للإسلام في دمياط، ثم ازدادت هذه الهجمات بعدئذ، وكانت عدة الأسطول تصل إلى أكثر من ستين سفينة وما فوق، بيد أنها كانت في الغالب تعبيراً عن تهديد وقتي أو لحظي، ولم يُراد به الاستيلاء على المدينة بصفة تامة، ربما كان أفضل

أساس "فرق تسد"، بحيث ينجح في النهاية في إبعادها عن التحالف مع أعدائه وبخاصة بربا روسا، وقد دفعه ذلك إلى التضحية بتحالفه مع البندقية، بتحريض البيازنة والجنوية ضدهم، وبمنح الجنوية حقوقاً داخل القسطنطينية على حساب البنادقة الحلفاء القدامى للإمبراطورية، وبالرغم من ذلك ثبت فشل هذه السياسة، وخسر مانويل في النهاية ثقة البنادقة، ومارس الجنوية علاقات تجارية مع بربا روسا ألدّ أعدائه، وتحالفت بيزا مع مملكة بيت المقدس في حملة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ بالرغم من المفاوضات الجارية بين بيزنطة والمملكة. انظر:

Kinnamos, *Deeds*, pp.209-211; Choniates, *Annales*, p.97.

وانظر أيضاً: عبدالعزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٨٩-١٠٣.

(١) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣٠٤.

(2) Kinnamos, *Deeds*, p.208; Choniates, *Annales*, p.92.

(٣) مما وصف به ياقوت الحموي مدينة دمياط قوله "*وأما دمياط ومن شمالي دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يقال له الأشتوم، عرض النيل هناك نحو مائة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلا بإذن، ومن قلبها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنيس، وعلى سورها محارس ورباطات*". انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٤٧٣.

تصوير لها أنها عمليات تخريبية، كان أحدثها ما حدث على أيام الخليفة الفائز الفاطمي، وفي وزارة طلائع بن رزيك، حينما هاجمت الأساطيل الصقلية دمياط "فعاثوا وقتلوا ونزلوا تنيس ورشيد والإسكندرية فأكثروا فيها الفساد[١]".

وقد أبدت المصادر الإسلامية رؤية معينة لعوامل مهاجمة دمياط بصفة خاصة، وهي بالرغم من كون المدينة ميناء على ساحل البحر فإنه يسهل مهاجمتها براً وبحراً على حد سواء، ولذا فإنه باستطاعة الحلف الاستفادة من قواته البرية والبحرية أكمل استفادة، ومن ناحية أخرى فإن الاستيلاء عليها يؤدي إلى اتخاذها موطأ قدم للصليبيين والبيزنطيين يستطيعون من خلاله التوغل داخل مصر بحيث "يتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر[٢]" ويبدو من رواية خونياتس أن مانويل كان يرغب في الحصول على مجرى مائي يدخل به إلى مصر، بحيث يسيطر على اقتصادها[٣]، أما جاك دي فيتري فقد رأى في حصانة المدينة عاملاً قوياً في رغبة الحلف في السيطرة عليها[٤]، إضافة إلى ثراء المدينة ثراءً فاحشاً وخلوها ممن يدافع عنها[٥].

ويشير نظير سعداوي إلى أن توجه الحلف إلى دمياط يدلل على أن بيزنطة هي

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٦٠٠. وعن تعرض دمياط للهجمات البحرية للصقليين والبيزنطيين وغيرهم فيما سبق عصر عموري انظر: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٥٩٧-٦٢٦. وعن الهجمات التي تعرضت لها دمياط على يد البيزنطيين انظر:

Kubiak, W. B., "The Byzantine Attack on Damietta", in *Byzantion*, (1971), pp.46-66.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣. وانظر أيضاً: ابن شداد: النوادر، ص٢٧؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١٥، ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٤١.

(3) Choniates, *Annales*, p.94.

(٤) جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٦١.

(5) Kinnamos, *Deeds*, p.208.

يشير كيناموس في أسباب مهاجمة دمياط بالذات إلى أنها كانت ممتلئة بالمواطنين الأثرياء إلى أبعد حد، ربما بسبب عمل أهلها بالتجارة، أما خونياتس فقد جعل من عدم تحصين المدينة وغياب من يدافع عنها سبباً لمهاجمتها، وهذا يوحي بأن القرار ظل خافياً حتى يتمكنوا من مباغتة صلاح الدين الذي لم يتوقع أن يكون الهجوم القادم عليها.راجع:

Choniates, *Annales*, p.92.

المحرك الأساس إليها، اعتماداً منهم على أسطولهم، علاوة على أن اختيارها نتج عن قربها من عكا بما يكفل القرب من مراكز الإمدادات، علاوة على سهولة سقوطها ومن ثم إسقاط مصر كلية[١]، بيد أن الأحداث تشير إلى حقيقة أخرى، وهي امتداد لمخطط عموري تجاه تحالفه مع الإمبراطور، وذلك لأن المدينة كانت مبذولة سلفاً للإمبراطورية البيزنطية، وسواء نجم التحرك إليها من خلال عموري أم من خلال الأسطول البيزنطي فإن عموري لم يبذل جهداً في محاولاته للاستيلاء على المدينة؛ لأنه ظل ساكناً أمامها ثلاثة أيام لم يفكر في التقدم نحوها، وهي الفترة التي استغرقها إرساء الأسطول، ويبدو أن عموري كان متعمداً هذا الإبطاء، بحيث تصل أخبار الهجوم إلى صلاح الدين بما لا ييسر المهمة على الأسطول البيزنطي[٢].

وبنظرة قريبة إلى دمياط سيتضح أنها على حد وصف وليم الصوري واحدة من أقدم مدن مصر على مصب النيل في البحر المتوسط، ولذا فهي أقرب إلى بلاد الفرنجة في بلاد الشام عن غيرها، على الأقل الإسكندرية ورشيد، ويقف على حراسة شاطئها برج عال، به طائفة من الرجال المسلحين، ويمتد من البرج إلى المدينة سلسلة حديدية تمنع دخول السفن من البحر المتوسط إلى النيل، وقد ظلت هذه السلسلة أهم العقبات التي أعاقت تقدم الأسطول البيزنطي إلى أعلى النهر[٣]، وهنا كان الاستغناء

---

(١) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٨. وانظر أيضاً: حسن حبشي: نورالدين، ص١٣٦.

(2) Maragone, *Annales* Pisani, p.54. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.317-318; Magdalino, *Manuel*, p.75.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٠-١٢١.ولم يشر كل من كيناموس وخونياتس إلى أي دور حربي للأسطول في عمليات الحصار، على حين يشير البنداري عن الأصفهاني إلى محاصرة المدينة براً وبحراً وأقتصر تعليق آخرون على أن العمليات الحربية كانت شديدة بحيث لم تنقطع ليلاً أم نهاراً، دون التلميح إلى أي تفاصيل تفيد في معرفة ما إذا كان للأسطول دور في الحصار أم لا على ما أشار البنداري. انظر:

Kinnamos, *Deeds*, p.209; Choniates, *Annales*, pp.92-93.

وعن المصادر العربية انظر: البنداري: سنا البرق، ص٤٥؛ ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣-١٤٤؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٤١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩-٩٠؛ ابن تغري

التام عن خدمات الأسطول الذي اقتصر دوره حتى تلك اللحظة على كونه مجرد وسيلة لنقل الجيش، وعليه اضطر الجيش إلى التحرك براً من شاطىء البحر حتى أسوار المدينة عبر الحدائق والبساتين المحيطة بدمياط.

وفيما يتعلق بالجبهة المصرية فإنه يتأكد لدى الباحث أن إبطاء عموري كان عاملاً مهماً في تقوية موقفها، وذلك لأن صلاح الدين الذي كان يخشى تزايد النفوذ الفاطمي في القاهرة كان يُعدّ آنذاك مدينة بلبيس لحصار متوقع، ولم تكن أحداث التحرك الصليبي البيزنطي بخافية على أي من نورالدين أو صلاح الدين، وذلك لأن بقاء الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط ما يقرب من شهرين لم يكن ليمر هكذا، علاوة على أن الأسطول البيزنطي سبق وهاجم عدة سفن مصرية، فأمسك ببعضها وفر بعضها الآخر[1]، وعليه فإنه كان بإمكان صلاح الدين الشعور بخطورة توجه مثل ذلك الأسطول إليه، والراجح أيضاً أنه أُخِذَ على غرة؛ لأنه كان يتوقع أن يكون الهجوم عبر الطريق التقليدي من شمال شرق مصر حتى القاهرة عن طريق الصحراء الشرقية، أما أن يأتي الهجوم عن طريق البحر فذاك ما كان يغفله، وبخاصة أن انفتاح السواحل المصرية وكثرتها يُقلّل من فرص نجاحه في تخمين وجهة الأسطول إلى أي منطقة محددة، وعليه فإن تباطؤ عموري أمام دمياط أضاع الفرصة الحاسمة للاستيلاء عليها، وفي المقابل أعطى صلاح الدين فرصة استطاع خلالها تحسين وضع الدفاع عن المدينة[2]، ويرجع الفضل في ذلك جزئياً إلى فشل الأسطول البيزنطي في الدخول إلى النيل، وذاك ما جعل اتصال دمياط بالقاهرة مفتوحاً.

بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٧.

([1]) Choniates, *Annales*, p.91.

([2]) عن دور صلاح الدين في دعم دمياط ومخاوفه من قيام مؤامرة أخرى ضده في القاهرة انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٥، الباهر، ص١٤٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩-٩٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٥٦-٤٥٩؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٧؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣،، ص٣١٥؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١١٩؛ البنداري: سنا البرق، ص٤٥.
وعن عدم توقع صلاح الدين الهجوم على دمياط تحديداً انظر:
Baldwin, *The Latin*, p.557.

ولكن لماذا لم يتحرك صلاح الدين إلى الدفاع عن دمياط بنفسه؟ وما هو موقف نورالدين من مهاجمة الحلف لدمياط؟ وإلى أي حد كانت هجمات الحلف على دمياط خطيرة؟ كان صلاح الدين متوجساً خيفة من بقايا النفوذ الشيعي الفاطمي، وبخاصة أنه لم يمر الكثير على حركة مؤتمن الخلافة؛ لأنها كانت خلال أغسطس ١١٦٩م/ذي القعدة٥٦٤هـ ولم يكن صلاح الدين متأكداً ما إذا كان هذا التحرك الجديد نابعاً عن اتصال بين عموري وبيزنطة وما قام به مؤتمن الخلافة من محاولة التآمر مع عموري في بداية العام ضد صلاح الدين، كما أسلف الباحث، وبالرغم من قضاء صلاح الدين على مؤتمن الخلافة والعناصر المؤيدة له فإن ذلك لا ينف حقيقة وجود عناصر أخرى ظلت باقية، بما بدا من مؤامرة عمارة اليمني فيما بعد، وقد أبدى صلاح الدين تلك المخاوف فيما ساقه المؤرخون عن مراسلته لنورالدين بأنه لا يستطيع التحرك إلى دمياط، وفي الوقت ذاته يخشى إن لم يتحرك إليها أن يستولي عليها عموري ومانويل، ولخص ابن الأثير ذلك في كلمات بالغة الإيجاز" وتابع رسله إلى نورالدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه[١]".

ويؤكد الانزعاج الذي أبداه صلاح الدين مرة أخرى أنه لم يكن على يقين من وجهة الحملة الحقيقية، وحينما أيقن ذلك كان رد فعله إزاء أهل دمياط أن راسلهم "وأنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معهم عليه، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإزعاج العدو إن نزل عليهم، وبالغ في الهدايا والهبات[٢]"وظل هو في القاهرة بينما أرسل مساعداته إلى المدينة أرسالاً، وكان بمدينة دمياط وال يدعى شمس الخوص أبدى شجاعة فائقة، في حين وجه صلاح الدين إليها قوات وإمدادات تحت قيادة ابن أخته تقي الدين، وخاله شهاب الدين محمود الحارمي، وظلت إمداداته تصل إلى دمياط حتى الأسبوع الأخير

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٥.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٥٨-٤٥٩.

في عمليات الحصار، وقد استفاد صلاح الدين من انفتاح خطوط اتصالاته بالمدينة عن طريق النيل والجانب الجنوبي البري لها، حيث توافدت المؤن والإمدادات إليها من مدن الصعيد والقاهرة وغيرها، وهذا ما جعل حصار عموري والبيزنطيين للمدينة ناقصاً.

وكان للعاضد الفاطمي دور كبير في مقاومة الحصار؛ ذلك أنه أمد صلاح الدين بمبلغ كبير قدره المؤرخون بألف ألف دينار سوى الثياب والإمدادات وغيرها[١]، وهذا مما دعم من موقف صلاح الدين، ولاريب أن موقف العاضد لا يحمل تناقضاً؛ لأنه إن كان قد تورط فيما سبق في حركة مؤتمن الخلافة فذلك لأنه كان يريد مصر كلها له وحده، وليس حباً في عموري أو غيره، وينم موقفه هنا عن حبه لهذا البلد الذي تهاجمه حشود ضخمة من البيزنطيين والصليبيين، ربما إذا ما نجحوا لن يكون له في مصر مقام كلية، خصوصاً وأن مصادر تلك الفترة تشير إلى عنف عملية الحصار التي كانت لديهم أشد خطراً من حملة عموري السابقة عام ١١٦٨م/٥٦٤-٥٦٥هـ[٢]، "واشتد زحفهم عليها وقاتلهم وهو يشن الغارات عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل[٣]".

أما عن موقف نورالدين فكان لرسالة صلاح الدين إليه رد فعل كبير، وذلك لأن توجه الحملة الصليبية البيزنطية إلى دمياط ومن بعدها باقي مصر، يهدد نورالدين نفسه في بلاد الشام، وبخاصة أن نفوذ بيزنطة في شمال بلاد الشام كان واضحاً جلياً منذ معركة حارم، إضافة إلى أن ضياع مصر من يده إلى الفرنجة يعني ضياع نفوذه في دمشق وما حولها، بل إن نجاح الحملة الصليبية البيزنطية في الاستيلاء على دمياط يؤدي إلى إعادة حسابات نورالدين كلية، ولذا فإنه كان مهموماً للغاية، بيد أن ابن الأثير وابن شداد يقعان في خلط واضطراب في عرضهما لما قام به نورالدين حيال

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢١-١٢٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٥، الباهر، ص١٤٤. وأيضاً:

Choniates, *Annales*, pp.92-93. See also: Baldwin, *The Latin*, p.557.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩-٩٠.

(٣) ابن شداد: النوادر، ص٢٧.

مصر آنذاك، فهما يركزان بشدة على إرساله للإمدادات، الفرقة بعد الأخرى، بحيث كان آخرها ما وصل دمياط بقيادة قطب الدين خسرو الهذباني قبيل رحيل الحملة الصليبية البيزنطية بأسبوع، مما يعني أيضاً أنه لم يتخل عن صلاح الدين أو عن دوره في مصر حتى اللحظات الأخيرة في عملية الحصار، ولكن حدث الاضطراب في عرضهما لدوره في بلاد الشام؛ ذلك أن نورالدين اعتاد منذ تجارب شيركوه الأولى في مصر أن يمارس ضغطاً قوياً على المملكة في بلاد الشام، بحيث يربك عموري في مصر، وقد أشار ابن الأثير وابن شداد إلى قيام نورالدين بذلك الدور، ولكنهما ذكرا تحركاته تلك في شعبان ورمضان وحتى نهاية السنة، على حين رحلت الحملة الصليبية البيزنطية عن دمياط في٢٢من ديسمبر١١٦٩/غرة ربيع الآخر٥٦٥هـ[١].

بيد أن ذلك لا يقلل من دور نورالدين؛ وذلك لأنه لم يسبق له التقصير في أمر كهذا، وبخاصة أن دفاعه عن مصر دفاع عن أحد أهم أملاكه التي استولى عليها مؤخراً، ولذا فإنه ربما اقتصر دوره في الضغط على المملكة بعمليات نهب وإغارة، وبخاصة أنه حينما تجمعت بعض فرق الفرنجة في بلاد الشام لمنازلته فإنها انسحبت حينما توجه إليها، وبذا لم يتح له فرصة الاشتباك مع أي منها، وتشير المصادر أيضاً إلى خلو المملكة الصليبية من ممانع يدافع عنها، وهذا يتعارض مع ما سبق وذكره وليم الصوري في تبريره لتأخر الملك، بأنه كان يعد وسائل الدفاع عنها، وإن كان يتفق مع ما ذكرته بعض المصادر الإسلامية بأن عموري اصطحب معه كافة قوى المملكة[٢]، وهنا يكون سبب تأخر عموري في التحرك نحو مصر بلا معنى أو أنه كان يقصد بالفعل هذا التأخر.

وأما عن العمليات العسكرية وأحداث حصار دمياط فإن المصادر التي عرضت لأحداثها تقدم أوجهاً متعددة تبعاً لاختلاف الرؤية سواء اللاتينية أم اليونانية أم العربية، بيد أنها جميعا تفيد في تكوين صورة تكاد تكون متكاملة عن الأحداث، فوليم الصوري

---

(١) قارن: ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣-١٤٦؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٧.

(٢) انظر: ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣-١٤٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٥٦-٤٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٥.

يُبرز جانباً مهماً من العمليات الحربية، فهو يشير إلى حقيقة حاول الجهر بها علناً، ولذا فإنه استخدم ألفاظاً وتعبيرات للدلالة على ما يدور بخلده، وهو بصفة عامة يحاول لفت الانتباه إلى أن الجيش الصليبي لم يكن متعاوناً ربما بسبب كسله وتراخيه بل إنه أبدى "من الجبن والتخاذل وعدم الاكتراث الشيء الكثير، وينسب البعض هذا التغير السلوكي إلى الخيانة، ويعزوه آخرون إلى التهاون واللامسئولية"،وحينما حاول وليم أن يبرر هذه التصرفات كعادته ساق حججاً واهية، ربما تناقض في جوهرها كسل الفرنجة وتخاذلهم الذي ذكره صراحة في البداية.

ومن جهة أخرى كان وليم صريحاً في أن الجيش البيزنطي تعرض لمجاعة كبيرة، وبالرغم من ذلك لم يحصل على معاونة من عموري مثلما لم تتصد جيوش الأخير لهجمات المسلمين على البيزنطيين، وفي هذه النقطة يكتفي كل من وليم الصوري وخونياتس في تصوير الجيش البيزنطي وكأنه هو الذي قام بكافة العمليات الحربية، وقد أكمل خونياتس ما عجز وليم الصوري عن سطره في مؤلفه - أو أنه لم يُنقل إليه ما حدث بالفعل - بأن عموري أجهض عدة محاولات قام بها البيزنطيون لمهاجمة المدينة؛ بإهداره للوقت حتى ضاع سدى، وذلك منذ إرساء الأسطول في قبرص وحتى رحيل الحملة عن دمياط وهي تجر أذيال الفشل، كما التقى خونياتس مع وليم الصوري مرة أخرى في تصوير بسالة البيزنطيين وقيامهم بأغلب العمليات الحربية ضد المدينة، وانفرد خونياتس دون غيره في تصوير الجيش الصليبي بالواقف على الحياد، أو كأنه يشاهد أحد الاستعراضات العامة، كما لو أن الحصار لا يعنيه، وكما يؤكد كل من كيناموس وخونياتس كان الملك عموري وجنوده يعتقدون أن تشديد البيزنطيين للحصار وهمتهم فيه ينبع عن رغبتهم في الحصول على المدينة لأنفسهم، وأن عموري كان يضن على البيزنطيين نصيبهم في مصر من هذه الحملة، وهذا ما جعله يهدر وقت الحملة في خطط لا تكتمل ومشروعات وهمية دون أن يتحقق أياً منها[1].

([1]) راجع: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٢-١٢٦. وأيضاً:
Kinnamos, *Deeds*, p.209; Choniates, *Annales*, pp.92-95.

أما المصادر العربية فقد ساقت رواية مقتضبة بيد أنه يمكن تفسيرها على ضوء بعض ما ورد فيها مقارنة بما ساقه وليم الصوري وخونياتس؛ ذلك أن تأخر الحملة في مهاجمة المدينة ثلاثة أيام أعطى فرصة لتوافد أعداد كثيرة من المصريين عبر نهر النيل وجنوب المدينة من ناحية البر؛ للدفاع عن دمياط التي اشتد عليها الهجوم براً بالآلات الحربية وأبراج الحصار المتحركة، وفي محاولة ذكية من المدافعين قاموا باستنباط الفكر نفسه برؤية المحاصرين ببناء أبراج داخل دمياط للوقوف على تحركات الحملة والمهاجمين لمدينتهم، وعلى الرغم من إشارة وليم الصوري إلى حدوث خسائر في أسوار المدينة بسبب استخدام المحاصرون لعمليات النقب والألغام تحت الأسوار، فإن الحلف لم يتمكن من دخول المدينة التي تزايد عدد المدافعين بها يوماً بعد الآخر، وقد تمكن المدافعون من التسلل خفية من أبواب سرية إلى معسكر الحملة وقاموا بعمليات فدائية كبيرة، أما خونياتس فإنه يلمح إلى محاولة إندرونيقوس كونتوستيفانوس جرّ المدافعين إلى معركة فاصلة ولكنهم لم يمكنوه من ذلك، وبخاصة أن موقفهم كان في تحسن دائم، واستعاضوا عن ذلك بتقوية المدينة من الداخل بالدفاع عن الأسوار وتقوية البوابات بالعرادات والمزلاجات، واكتفوا بقذف المهاجمين من خلف الشرفات وأبراج الأسوار، إضافة إلى استنباط أفكار جريئة في مهاجمة الأسطول وتعريض بعض سفنه للحريق، وحينما حرك إندرونيقوس آلات الحرب الضخمة نحو الأسوار فقد أعاقه المدافعون - بعكس ما ذكر وليم الصوري - برشقها بوابل من القذائف الكثيفة، وابتكروا من الوسائل ما يمكنهم من الحفاظ على الأسوار والمدينة، وحينما نجح البيزنطيون في مداهمة بعض أجزاء الأسوار، اتفق وليم الصوري وخونياتس على أنه الجزء الذي يحوي كنيسة للعذراء، مرت به خلال تجوالها في مصر بابنها - عليه السلام - وكان المسيحيون محتشدين فيها احتفالاً بالقربان المقدس[1].

([1]) قارن الرواية العربية بنظيرتها اليونانية واللاتينية. ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣-١٤٤؛ ابن شداد؛ النوادر، ص٢٧؛ البنداري: سنا البرق، ص٤٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٥٦-٤٥٩؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٢-١٢٦. وأيضاً:

Choniates, *Annales*, pp.92-93.

ويُلاحظ على سير العمليات الحربية أن موقف المدافعين كان قوياً منذ البداية، وأن أغلب العمليات الحربية التي تمت كانت من جانب البيزنطيين وحدهم، وبخاصة أنه وقع عليهم النصيب الأكبر من هجمات المسلمين عليهم، ويبرر وليم الصوري هذا التصرف بأنه ربما نتج عن علم المصريين بضعف الجيش البيزنطي ونقص قواته وطعامه، ولذا فقد شددوا هجماتهم عليه، وفي المقابل كان إرجاء عموري للعمليات الحربية إلى أجل غير مسمى، وقد أفاد المسلمون من عدم تعاون الصليبيين والبيزنطيين ذاك في إرجائهم العمليات الحربية، بحيث أطالوا أمد الهجمات التي لم يكن من ورائها طائل، بل كان جل هدف المدافعين إهدار الوقت وإضاعة الأمل لدى البيزنطيين، أما دور الصليبيين فإنه كان باهتاً إلى أقصى حد، بحيث كان وصف وليم الصوري يكاد يكون موافقاً لرأي خونياتس في أنهم ربما لم يشاركوا بجدية في العمليات الحربية، وحينما همّ إندرونيقوس في توريط عموري معه في القيام ببناء أبراج حصار تكفي لتغطية كافة قطاعات السور فإن عموري وجدها فرصة أخرى لإهدار ما بقي من الوقت في جمع جذوع النخيل والأشجار اللازمة للبناء، ناهيك عن عمله يوم وتوقفه عدة، وهكذا دون أن ينجز شيئاً، بينما كان إندرونيقوس يستشيط غضباً نظراً لتقيده بأوامر الإمبراطور في ضرورة انصياعه لرغبات الملك عموري وأوامره[١].

علاوة على القدرة الفائقة التي استطاع صلاح الدين من خلالها وضع المدينة في حالة دفاع متزن، وفي وقت قصير للغاية، بصورة جعلت وليم الصوري وهو عدوهم -وشهادة الأعداء أفضل من شهادة الأصدقاء في مثل هذا الموقف- يصفهم بالبسالة "فكانت أعدادهم تتزايد بكثرة بسبب توالي إمدادهم بالمقاتلين الشجعان البواسل، مما أسفر عن أنهم أصبحوا قادرين على مقاومة هجماتنا، ليس فقط في داخل المدينة ذاتها بل وأيضاً خارجها في ساحة القتال[٢] ". وينم هذا الوصف عن شيء واحد وهو أن وصول مدينة ساحلية نائية إلى هذه الحالة من الدفاع لهجوم مفاجئ،

([1]) Choniates, *Annales*, pp.92-93.

([٢]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٣.

وفي تلك المدة القصيرة يدل على أمرين غاية في الأهمية: أن العمليات الحربية التي قام بها الحلف لم تكن جادة، وأن قيادة صلاح الدين لأزمة الأمور كانت ناجحة.

وبينما كان إندرونيقوس كونتوستيفانوس يعدّ خطته الواسعة للاستيلاء على دمياط، دون النظر إلى عموري وجيشه الذين كانوا على حد زعمه حمقى، إذا بعموري يتقدم إلى موقع عمليات الحصار على صهوة فرسه، وقد صعق عموري من هول ما سمع عن عزم إندرونيقوس الاستيلاء على دمياط -على ما قال خونياتس- وبعد قليل أبدى عموري جانباً من أوراقه الخفية، بأنه كان يتفاوض مع أهالي المدينة لتسليمها إلى الإمبراطور، وأن محاولات إندرونيقوس الأخيرة أجهضت -بلا شك- المفاوضات الجارية، وبعدها تم الصلح بيد أن كلاً من وليم الصوري أو خونياتس لم يوضحا الملابسات المصاحبة لعملية المفاوضات، وبخاصة أن كلاً منهما اتهم المعسكر الآخر بأنه خائن للآخر، وأنه كان يتفاوض سراً مع المصريين[١]، ويُضيف ميخائيل السرياني ما يفيد بأن البيزنطيين كانوا يدبرون لخداع الملك عموري بالبقاء في مصر بعد رحيله؛ لمحاولة الاستيلاء على المدينة وحدهم بعدئذ، وأن صلاح الدين بذل لهم رشوة حتى يتخلوا عن الحصار منذ البداية[٢].

وقد صمتت المصادر العربية عن هذه الإشكالية، بحيث يُشار إلى رحيل الحلف الصليبي البيزنطي في كلمات موجزة، ربما عن غير اتفاق أو صلح مع المصريين، أما وليم الصوري فإن روايته هنا غامضة بشدة، بل إنه أقرّ أن الصلح تضمن بعض الشروط السرية، لكنه لم يُخف أن الملك هو الذي استهل عملية التباحث مع الأتراك، أو المصريين، ثم جاء دور البيزنطيين في الموافقة عليه وبعدها أُعلِنَ عن الصلح[٣]، أما كيناموس فيتهم عموري بأنه كان أنانياً ويضنّ على البيزنطيين نصيبهم من الغنيمة في مصر، وأنه قبل رشوة من المصريين لإنهاء الحصار[٤]، على حين كان خونياتس

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٦. وأيضاً:
Choniates, *Annales*, p.95; Kinnamos, *Deeds*, p.209.

(2) Michel Le Syrien, *Chronique*, III, p.335.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٦.

(4) Kinnamos, *Deeds*, p.209.

-على غرار وليم الصوري- غامضاً ومتكتماً فيما قرره حول ملابسات الصلح، مكتفياً في قوله بأن عموري كان يتفاوض سراً مع المصريين على الصلح، وبعد عقدهم له رحل كل إلى بلده[١]، هذا ما ساقته المصادر عن عقد الصلح وأسبابه، بحيث كال كل طرف الاتهامات للآخر حول جوانب تقصيره.

وقد ترتب على فشل الحلف وعوامل انسحابه اختلاف ردود أفعال المحدثين من المؤرخين إزاء ذلك، وهي اختلافات متشابكة في دوافعها ومعقدة في النتائج التي ترتبت عليها. إذ يشير روهرشت إلى أن عموري ربما كان يتفاوض سراً مع المصريين؛ للحصول على مبلغ كبير من المال من قبيل الإتاوة التي اعتاد الحصول عليها في الآونة الأخيرة[٢]، أما رنسمان فإنه يرجح قيام عموري بالتفاوض مع صلاح الدين على أمل أن يكون بينه وبين عموري ما كان قائماً بين الأخير وشاور[٣]، أما شلمبرجيه فإنه وافق على رأي رنسمان وزاد عليه أن عموري كان يهدف إلى إفساد مخطط البيزنطيين في الاستيلاء على مصر وحدهم، بيد أنه لم يحدد شروط الصلح أو الطرف الذي استهل المفاوضات[٤] وهو في ذلك متأثر إلى حد كبير برواية خونياتس[٥].

ويُرجِح حسن حبشي أن البيزنطيين لم يطلبوا الصلح، على عكس ما ذهب وليم الصوري؛ لأن البيزنطيين كانوا يرغبون في سقوط دمياط في أيديهم، ولذا فإنه كان يهمهم في المقام الأول الاستيلاء على مصر بحد السيف بحيث لا ينازعهم فيها منازع، وعليه بنى رأيه في ترجيح قيام عموري بطلب الصلح لإفساد خطة مانويل، وبحيث يتمكن من العودة على عجل لرفع ضغط نورالدين عن أملاك الفرنجة في بلاد الشام[٦]، وذهب مجدالينو ولِيلِي إلى التركيز على إرجاء عموري للعمليات الحربية

---

(1) Choniates, *Annales*, p.95.

(2) Rohricht, *Amalrich I*, p.468.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٢٦.

(4) Schlumberger, *Campagnes*, pp.278-280.

(5) Choniates, *Annales*, p.95.

(٦) حسن حبشي: نورالدين، ص١٣٩.

وإضاعته للوقت حتى قلت إمدادات البيزنطيين بوصفه عاملاً حاسماً في استهلال المفاوضات ولكن حدث ذلك من قبل عموري وليس من قبل البيزنطيين[١]، وأضاف إسحق عبيد إلى ما ذكره هؤلاء انتشار إشاعة تفيد تقدم جيش كبير للمسلمين من الشرق لمهاجمة الصليبيين والبيزنطيين في دمياط[٢]، ورأى لامونت أن نزاع المشاورات كان العامل الحاسم في فشل الحلف، بحيث قلت - بدون حكمة معينة - رغبة التحالف الإمبراطوري في عيون ملك بيت المقدس[٣].

ورفضت علية الجنزوري رأي ميخائيل السرياني بأن البيزنطيين خدعوا عموري وظلوا في مصر بعد رحيله، مستندة على أن الجيش البيزنطي كان في حالة يرثى لها، بحيث لا يستطيع القيام بأي مهام أخرى في مصر، ولذا فقد رحل عنها في عجالة[٤]، وقد رفض رنسمان رواية ميخائيل السرياني المعروف بكرهه الشديد للبيزنطيين، أما عمران فيؤكد أن كلا الطرفين كان في عوز إلى الرحيل بعد تردد الشائعات في المعسكرين عن سوء نية القوات المتحالفة، وخوفها من استئثار أي منها لنفسها بالمدينة دون الأخرى، لذا فقد شعر كل طرف بحاجته للرحيل حتى لا يهلك جوعاً أو بحد السيف[٥]. والواقع أن هذا وغيره لم يخرج عن ترجيح ما حدث، وذلك لأن الرواية المعاصرة كانت غامضة ولم تقدم في إشكالية الصلح ما يتيح سبر أغوارها، ولذا فإنه ترك المجال مفتوحاً لإعمال العقل، انطلاقاً من وحي علاقة المقدمات بالنتائج، وهذا ما يدعو الباحث للاقتراب قليلاً من الأحداث؛ لتسليط الضوء عن قرب عن أهم العوامل التي تضافرت للوصول إلى تلك النتيجة، مع أخذ الآراء السالفة في الاعتبار بعد إخضاعها للنقد.

لقد تضافرت العديد من العوامل التي كان لها دور في إفشال الحملة، وهي برغم تفاهتها بيد أنه بجمعها إلى جوار بعضها وربطها بأخرى تصبح غاية في التأثير، فمن

---

(1) Lilie, *Byzantium*, p. 201; Magdalino, *Manuel*, p.75.

(٢) اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢٣٢.

(3) La Monte, *To what extent*, p.262.

(٤) علية الجنزوري: هجمات الروم، ص١٩٦-١٩٧.

(٥) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١١.

العوامل المهمة التي تسببت في فشل الحملة ما نمَّ منها عن سوء التخطيط والقيادة منذ البداية؛ إذ لم تتحدد بصفة دقيقة مسئوليات كل من عموري وإندرونيقوس، هذا على الرغم من إيضاح خونياتس لهذه النقطة بمنتهى الوضوح، حيث لم يكن بإمكان إندرونيقوس أن يتحرك إلا بدافع من الملك عموري الذي كانت له القيادة العليا، وبالرغم من ذلك فقد سلك إندرونيقوس ما ينفي ذلك؛ ذلك أنه قام بمهاجمة تنيس والمناطق المجاورة لها دون الرجوع إلى عموري.

ويضاف إلى ذلك لمس خيط من عدم التعاون بين الطرفين، بدا جلياً لدى كل من وليم الصوري وخونياتس، في قيام إندرونيقوس وحده بمعظم العمليات الحربية وتصديه لأغلب هجمات المصريين، وعزمه فيما بعد على مهاجمة المدينة منفرداً، وكأن عموري كان غائباً عن عمليات الحصار، بحيث لم تتصد قواته مع البيزنطيين لهجمات المسلمين على المعسكر البيزنطي، وكلما تمادى عموري في تأخيره أبدى إندرونيقوس همة ونشاطاً في عمليات الحصار؛ لأنه كانت له ظروفه الخاصة، إذ أصبح جيشه معرضاً للمجاعة بسبب نقص إمداداته، ويبدو أن تلك الهمة التي أبداها إندرونيقوس أيقظت لدى الفرنجة هواجس تتعلق برغبة البيزنطيين في الاستحواذ على المدينة لأنفسهم، مما ولّدّ هواجس ترتب عليها عدم التعاون بين الطرفين[١].

كما لم يكن الحصار تاماً على المدينة وذلك من سوء تخطيط الطرفين، ويعود الفضل في ذلك جزئياً إلى عدم استخدام الأسطول في العمليات الحربية، بسبب اعتراض السلسلة التي تربط برج دمياط بالمدينة لدخول السفن البيزنطية فرع دمياط ومحاصرة المدينة، وبالفعل اقتصرت مهام الأسطول على نقل الجنود إلى أرض المعركة، وهذا في حد ذاته من أسوأ ما حدث؛ لأنه ترك جانباً مهماً من المدينة مفتوحاً على باقي مدن مصر، توافدت منه القوات والمؤن التي صمدت للحصار[٢]، ويشير عمران إلى أن ذلك الخطأ من مسئولية إندرونيقوس الذي لم يكن قائداً بحرياً وإنما قائد

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٥-١٢٨.وأيضاً:

Choniates, *Annales*, p.93.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٠، ١٢٣، ١٢٥-١٢٧.

بري، ولذا فإنه لم يستطع تفعيل دور الأسطول، بل إنه لم يستطع الحفاظ عليه حينما كاد يتعرض لحريق هائل حاول المسلمون القيام به[١]، بيد أن اتهام إندرونيقوس على تلك الشاكلة يبخسه حقه؛ لأنه إذا كان قد فشل في إدخال الأسطول إلى فرع دمياط فإنه لم يكن تصرفاً فردياً، وإنما حال دون ذلك ظروف تأخره في البحر ثلاثة أيام، ولوجود السلسلة الضخمة التي أعاقت تقدمه، إضافة إلى أن القيادة البحرية ربما كانت موكولة لأحد قادته الذين كانوا يصاحبونه، أما عن موهبته هو في القيادة البحرية فكانت واضحة للعيان خلال مطاردته الناجحة للأسطول البندقي الذي قام بعمليات انتقامية ضد بيزنطة عام ١١٧١م[٢].

والأهم من ذلك أن عدم تفعيل دور الأسطول لم يقض على همة إندرونيقوس وعزمه، بل على العكس، جعله يستخدم مواهبه البرية في القتال، بما اشتهر عنه من خطب حماسية ألهب بها جنوده في أشد اللحظات صعوبة وبما له من خطط حربية وخبرة في عمليات حصار المدن، وقد ثبت له قيامه بذلك أمام دمياط "فإذا اخترتم حقاً أداء واجباتكم فإنه الوقت الذي يجب أن تثقوا في به؛ لأنني سأتحمل معكم في سعادة غامرة أياً ما سيحدث، ولا تدعوا قائلاً يقول إن إندرونيقوس مقنعاً في حجته وقادراً على تحريض الآخرين على شن الحرب، إذ إنه هو نفسه قائد يائس، لا يعرف جيداً كيف يقاوم الأعداء ويردهم فحسب وإنما على يقين بأن العدو سيرى وجه خوذتي قبل أن يرى خوذاتكم، وحيثما تدفعني الضرورة للقتال في المقدمة[٣]"، فهذا وغيره مما قام

---

(١) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١٢-٣١٣.

(٢) وقد أشار وليم الصوري وخونياتس إلى مصاحبة قادة آخرين لإندرونيقوس كونتوستيفانوس عند خروجه من بيزنطة بناء على أوامر الإمبراطور، وربما كان من بينهم قادة بحريين، ومن ناحية أخرى فإنها لم تكن المرة الأولى التي يقود فيها إندرونيقوس كونتوستيفانوس أسطولاً بحرياً لأغراض برية. انظر:

Choniates, *Annales*, p.91; Kinnamos, *Deeds*, pp.202-205.

وأيضاً وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٧. وقد حدد وليم الصوري عدد القادة المرافقين لإندرونيقوس كونتوستيفانوس تحت إمرته.

(3) Choniates, *Annales*, pp.94-95.

وخطبة إندرونيقوس كونتوستيفانوس هنا طويلة ويبدو أنها من قلم خونياتس في ظل ظروف لم تكن

به إندرونيقوس في محاولة إسقاط المدينة يحسب له، بيد أن عدم التعاون الذي بدا من عموري كان من الطبيعي أن يحبط من معنوياته ومعنويات جنوده.

ومما يندرج تحت أخطاء القيادة أيضاً عدم توحيد العمليات الحربية، بحيث يبدو كأن كل طرف كان يقوم من جانبه بما يراه، وقد بدا جلياً أن قرار حصار بعض أجزاء الأسوار جاء خطئاً؛ لأنه ثبت أنه من أقوى أجزاء الأسوار وأكثرها ارتفاعاً ومناعة، علاوة على أنها تشرف داخل المدينة على كنيسة للعذراء، عانت من القذائف التي تسببت فيها عمليات الحصار، وبحيث صار المهاجمون مصدر سخرية المسلمين بالداخل[1]، وبدا خطأ القيادة جلياً مرة أخرى فيما صوره خونياتس عن محاولة إندرونيقوس شن هجوم شامل على المدينة من قبل البيزنطيين وحدهم، بل إن ما أبداه خونياتس عن جهل عموري بما نوى إندرونيقوس القيام به يعد مشكلة كبيرة؛ لأن تخطي إندرونيقوس وجود قائده العام بقيامه بعمل كهذا، حتى وإن كانت له أعذاره، يدلل بوضوح على غياب القيادة الموحدة، وهذا ما ظهر في لحظات رحيل الأسطول البيزنطي، بحيث يقرر خونياتس بأنه رحل قبل أن تُعرف نتيجة المفاوضات أو شروط الصلح؛ إذ تحركت سفن الأسطول في أكثر من عشرة آلاف اتجاه – على ما قال خونياتس مجازاً - وكانت النتيجة أنها لم تراع ظروف الرياح العكسية، فتحطمت العديد من السفن[2].

إضافة إلى أن اختيار المكان الذي عسكرت فيه جنود الحملة كان ضيقاً للغاية؛ لأنه على وصف وليم الصوري المنطقة الممتدة من الساحل حتى أسوار المدينة وهي تقدر بحوالي ميل، بما ترتب عليه احتشاد قوى الجيشين بشكل متكدس، فصارت صيداً سهلاً لقذائف المصريين داخل المدينة، علاوة على إتاحة هذا الوضع سهولة مهاجمة

تدون فيها مثل تلك الخطب، ولم يكن لدى أحد القدرة على حفظها نظراً لطولها وهي متأثرة بقالب أدبي كلاسيكي وبأمثلة مستوحاة من الأدب اليوناني القديم.

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٢-١٢٣. انظر أيضاً:

Choniates, *Annales*, pp.92-93.

([2]) Choniates, *Annales*, p.95.

وارجع أيضاً إلى: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١٦.

المدافعين لهم، بما يُشار إليه بالعمليات الفدائية التي كانت تتحرك ليلاً عبر أبواب سرية، بل ولم يراع مع هذا الوضع الخطورة التي تنجم عن التحام عسكري شامل، ففي حالة هزيمة الحملة فإن جنودها لن يجدوا ملاذاً للتقهقر أو الانسحاب سوى الأسطول وهو لا يكفي وحده ؛ ذلك أن نوبات المد التي أشار إليها وليم الصوري جعلت دمياط شبه جزيرة محاطة بالمياه من ثلاثة جوانب: البحر المتوسط شمالاً، ونهر النيل غرباً، وبحيرة تنيس شرقاً، ولم يعد لها سوى مدخل بري إلى الجنوب من المدينة التي أصبح الاتصال بها عن طريق النيل داخل مصر من أخطر ما واجهه المحاصرون، وكما أشار وليم الصوري لم يستطع الجيش الصليبي الانتقال براً إلى دمياط بسبب ارتفاع نوبات المد، ومن ثم فإنه في حالة التقهقر عن هزيمة يصبح هذا الجيش الضخم معرضاً لإحدى موتتين: إما بحد السيف أو غرقاً في الماء[1].

ولم يقف الأمر عند ذلك وإنما كانت الظروف المناخية التي أبحرت فيها الحملة إلى دمياط بالنسبة للأسطول، أو تحرك الجيش براً من الأمور التي تنم عن عدم تدقيق في التخطيط لاختيار الوقت المناسب لمهاجمة دمياط، إذ بدأت العمليات الحربية في ٣٠ من أكتوبر ١١٦٩م/٧ من صفر٥٦٥هـ، ويؤكد عمران أن ذلك لم يكن من مسئولية مانويل بقدر ما هو مسئولية عموري الذي تسبب في تأخير الحملة شهرين بحيث دخل فصل الشتاء[2]، والواقع أن الأمر كان أخطر من ذلك؛ لأن قرار مهاجمة دمياط يتسم بالغباء في ظل هذه الظروف المناخية السيئة، ذلك أن المدينة باعتبارها ساحلية فإنها معرضة لتقلبات شديدة في الطقس، تجعل من المهام العسكرية أمراً غاية في الصعوبة على محورين: وجود البحر فيما يخص تحركات الأسطول وإرسائه، مما تسبب في تأخيره ثلاثة أيام عن مباغتة المدينة، والمحور الثاني ما واجهه الجميع من صعوبات في الانتقال بسبب هطول الأمطار وهبوب النوات مما نتج عنها ظروف غاية في السوء من برد وأوحال؛ إذ سقطت الأمطار بغزارة مما أدى إلى تحول

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٠-١٢٥.وأيضاً: محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١٥-٣١٦.

(٢) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١٤-٣١٥.

المعسكر إلى منطقة موحلة علاوة على غرق خيام المعسكر بالمياه.

ولاشك أن أكثر الذين كانوا يعانون من هذه الظروف هم الجنود أنفسهم الذين يقومون بالعمليات الحربية، ذلك أن الحرب نهاراً تعني الاستراحة ليلاً، ولم يكن هذا متوفراً، خصوصاً في ظل نقص الطعام، وقد اضطر هؤلاء إلى حفر خنادق لصرف المياه حول الخيام[1]، ويرجح عمران أن تلك الحفر كانت سبباً في إعاقة العمليات الحربية، ومن المحتمل أن تؤثر على كفاءة القوات القتالية وتعوق حركتها، بل إن هذه الظروف المعقدة تتيح ظهور الأوبئة التي أشار بعض المؤرخين المسلمين إلى أنها أثرت على الجيش، بحيث لم يكن بمقدور البعض الوقوف على قدميه "ثم وقع الوباء والفناء، فرحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير[2]"، وهكذا نتج عن هطول الأمطار مشاكل لا حصر لها؛ إغراق المياه للمعسكر وملئه بالأوحال والحفر وتعريض الجنود للبرد والإصابة بالأوبئة التي تكاتفت معها صعوبة الحصول على الأطعمة.

ومن الواضح أن الجبهة المصرية لم تقصر في دورها، ذلك أن خطورة الحملة كانت بادية في الأسطر القليلة التي ساقها المؤرخون المسلمون عن الحملة، وبدا جلياً الدور الإيجابي ليس في كتاباتهم فحسب وإنما في كتابات كل من وليم الصوري وخونياتس، ظهر بابتكار الحيل الجديدة ومواجهة الأبراج بالأبراج، وتوفير الرجال والمؤن وإرسالها من وقت لآخر، علاوة على الاحتفاظ بخطة موحدة تقضي بعدم الالتحام المباشر مع الحملة، أو حسم الموقف في معركة فاصلة، ولم يكن لدى المحاصرين من المشاكل القيادية والتموينية والنفسية ما لدى مهاجميهم، وحينما راجت إشاعة مفادها أن جيشاً مسلماً في طريقه من بلاد العرب والعراق إلى المدينة فقد خارت قوى المهاجمين، خصوصاً أن الظروف كانت أقوى منهم، عانوا منها خلال خمسين يوماً تقريباً، ولم يطرأ أي تحسن في موقف الحملة، "وحينما طال الوقت الذي

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٢-١٢٣.

([2]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٧. وأيضاً: ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٤١. ولا يستبعد حدوث هذا الوباء، حيث يشير ابن القلانسي إلى تعرض دمياط لفناء فقدت خلاله ١٤ألف شخص وذلك في عام ١١٥١م/٥٤٦هـ. راجع: ابن القلانسي: الذيل، ص٣١٦.

استغرقته الحملة، نفذ صبر الجنود وبدءوا في التذمر[1]".

وثمة ملمحان بارزان لدى وليم الصوري وخونياتس، يركز كل منهما على أحدهما في وصمه للآخر بالتقصير؛ ذلك أن وليم الصوري يتهم الإمبراطور بأنه لم يف بوعده في إرسال المنحة الإمبراطورية لقادته، حتى يستعينوا بها في شراء ما يلزمهم من مؤن أو أطعمة، أما خونياتس فيتخذ من التأخير الذي تسبب فيه الملك عموري منذ البداية وحتى انتهاء العمليات الحربية - بحيث كانت كل كلمة من كلمات خونياتس التي كانت روايته هنا وافية وأكثر دقة تقطر لوماً وعتاباً على مماطلة الملك وتسويفه - وكأنه العامل الحاسم في فشل المشروع[2].

بيد أن المدقق في هاتين الروايتين يجد أن كلاً منهما كان محقاً ولكن في ظروف معينة، إذ يمكن قبول اتهامات البيزنطيين على ضوء أن المعاهدة التي قامت على أساسها الحملة قد عقدت في سبتمبر١١٦٨م/ذي الحجة٥٦٣هـ، وفي الوقت ذاته بعث مانويل بجزء من أسطوله لإعلام عموري بتحرك الأسطول نحوه ولمنحه الوقت اللازم للقيام بترتيباته، وكما أوضح الباحث فإن عموري تمكن بشكل ما من إضاعة شهرين كاملين من تاريخ وصول الأسطول بذريعة أنه يقوم بإعداد وسائل الدفاع عن مملكته، وهي حجة واهية على أية حال، وهنا ربما يكون خونياتس مبالغاً في تركيزه على عامل التأخير وكأنه العامل الحاسم في الفشل، بيد أنه كان أكثر دقة - عن وليم الصوري - في إيراده لتفاصيل كثيرة، وبخاصة تاريخ تحرك الأسطول، هذا على الرغم من أن وليم الصوري يحاول أن يجعل عموري مثله مثل مانويل متورطاً.

ولكن يُشير السياق العام لأحداث الحملة إلى عدم اهتمام عموري بغزو مصر بمشاركة بيزنطة، وقد سبق إيضاح بعض جوانب هذا الاهتمام، ذلك أنه رفض هو وباروناته مشاركة بيزنطة، ولكن قطع وصول الأسطول البيزنطي على عموري خط

([1]) Choniates, *Annales*, p.93.

راجع أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢١-١٢٥؛ ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣-١٤٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩-٩٠.

([2]) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٣-١٢٤. وأيضاً:

Choniates, *Annales*, p.93.

الرجعة؛ لأنه لا يستطيع رده أو عدم التعاون معه؛ لأن الأسطول وصل أمام سواحل المملكة بالفعل، وتمثل الحل الذكي الذي رآه عموري في موافقته على التحرك مع البيزنطيين، ولكن في إطار تسويف ومماطلة أخرت كثيراً من أخطر اللحظات حسماً في تحقيق انتصار على المصريين، محطماً بذلك المشروع كلية قبل أن يحقق نتيجة إيجابية "ويجب أن يلاحظ عدم رؤية الفرنجة لتطورات المستقبل عام ١١٦٩م، حيث اعتقدوا بوضوح أنه يمكنهم غزو مصر بدون المساعدة البيزنطية، بحيث لا تنخفض الفوائد المتوقعة إذا ما شاركهم البيزنطيون وهذا هو سر سلوك حملتي ١١٦٨ و١١٦٩م[١]".

وفي ضوء ذلك يمكن قبول فرضية أن إمدادات الجيش البيزنطي كانت ضعيفة، وذلك لأنه مقارنة بكرم مانويل في مواضع أخرى فإن إمدادات حملته كانت ضئيلة – على ما قال وليم - بغض النظر عن التأخير الذي تسبب فيه عموري - على ما قال خونياتس - خصوصاً إذا ما كان لدى كلا الطرفين حزم في اجتياح المدينة فور الوصول إليها، هنا ربما كانت الإمدادات البيزنطية كافية بالفعل، فربما تصور الإمبراطور مانويل قدرة جيشه على المواصلة إذا ما استطاع الاستيلاء على المدينة والتقدم داخل مصر بما يمكنه من الإفادة من مواردها، وينتقد عمران ما ساقه وليم الصوري عن عدم وفاء مانويل بما وعد به من أموال - وإن كان وليم الصوري يناقض بذلك نفسه؛ لأنه سبق وأقر أن الإمبراطور أوفى بأكثر مما وعد - بأنه حتى وإن أرسل مالاً فإن البيزنطيين لن يجدوا من يشترون منه، ولكن يُردُّ على عمران بإشارة خونياتس إلى أن البيزنطيين كانوا يشترون الحبوب من تجار عموري بأعلى الأسعار[٢]، ثم يدين عمران إندرونيقوس كونتوستيفانوس لأن مسئولية نقص إمداداته من مسئوليته هو؛ لأنه تحرك للحصار وهو يعلم ذلك، حقاً كان عموري متأخراً في تحركه مما أدى إلى تأخير الأسطول، ولكن كان كل قطاع مسئول عن إمدادات جانبه وتدارك شئونه، ما لم يكن مانويل قد وضع في اعتباره الاستيلاء على دمياط بين يوم

([1]) Lilie, *Byzantium*, p.201. See also: Baldwin, *The Latin*, p.558.

([2]) Choniates, *Annales*, pp.92-93.

وليلة[1]، ويُعلّق رنسمان على أن جزيرة قبرص كانت عاجزة عن إمداد الأسطول بالمؤن؛ لأنها لم تنتعش منذ إغارة رينو دو شتيون عليها، ولم يكن في مقدور عكا أن تزوّد أسطولاً كبيراً كهذا بما يلزمه من مؤن[2].

بيد أنه كان من المشكوك فيه أن تحقق الحملة هدفها بسهولة، وبخاصة عقب اعتلاء صلاح الدين أزمة أمورها، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى خطأ عموري في قيامه بحملة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ التي افتقدت إلى الحكمة، بل على العكس ألقت بمصر في أيدي المعسكر النوري، وعليه جاء تحالف عموري مع بيزنطة متأخراً للغاية؛ لأن تأخر مانويل في الاستجابة للملك عموري عامي ١١٦٥م و١١٦٧م حسم القضية، وحينما فكر مانويل أخيراً بطريقة جدية كانت أفضل اللحظات المناسبة قد مرت بالفعل[3].

وتشير غالبية المصادر إلى أن مدة الحصار استغرقت خمسين يوما تقريباً أو نيفاً وخمسين يوماً، فإذا أخذ الباحث في اعتباره أن العمليات الحربية بدأت في ٣٠ من أكتوبر١١٦٩م/٧ من صفر٥٦٥هـ فإنها تنتهي تقريباً فيما بعد ٢٠من ديسمبر/٢٩من ربيع الأول، وقد أقر وليم الصوري هذه الحقيقة، حيث يشير إلى رحيل الحملة عن دمياط في ٢١من ديسمبر/٣٠من ربيع الأول[4]، ولم تبعد المصادر الإسلامية عن تقدير وليم الصوري، ذلك أنها حددت بدايات عملية الحصار في مستهل صفر، بحيث حددها بعضهم بالثالث من صفر وصاغ آخرون تعبيرات عامة مثل مستهل صفر أو أوائل صفر، وبينما يشير بعضهم إلى بقاء الحلف أمام دمياط شهرين محددين٢٢ من ديسمبر/ غرة ربيع الآخر تاريخاً لتحرك الحملة فإنها تناقض بعضها لأن المدة من أول صفر إلى ٢من ربيع الآخر لا تعني شهرين وإنما نيف وخمسين يوماً، وعليه يمكن الاطمئنان إلى تحديد وليم الصوري؛ لأنه يتوافق بنسبة كبيرة مع ما أورده بعض

---

(1) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١٢-٣١٣.

(2) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٢٣-٦٢٤.

(3) Lilie, *Byzantium*, pp.201-202; La Monte, *To what extent*, p.262; Magdalino, *Manuel*, p.75.

(4) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٦-١٢٧.

المؤرخين المسلمين، أما الرواية البيزنطية فإنها لم تكن دقيقة في هذا الموضع، وذلك لأن خونياتس الذي أشار إلى بقاء الحلف في عملية الحصار خمسين يوماً، حدد ٤من ديسمبر تاريخاً للرحيل، ولذا فإنه يصعب الاعتماد عليه في ظل عدم تحديده لتاريخ بدء عمليات الحصار، ولاختلافه مع ما أوردته المصادر اللاتينية والعربية[١].

كانت الرؤية المعاصرة للحملة متفهمة لما بات عليه أمر الملك عموري في مصر، بحيث صورته المصادر بأنه كان مثل النعامة "ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين" وهذا يعني أيضاً أن عموري أضاع مصر لآخر محاولة جادة كان بإمكانه استغلالها بأي شكل، حقاً إن الخط السياسي الذي كان يتبعه واضحاً، بيد أنه لم يدرك حينما دمر خطط الحملة بأن عقارب الزمن لن تعود للخلف، وبدلاً من إضعافه لمركز صلاح الدين أكد دون أن يدري مكانة صلاح الدين في مصر، وظهر له خطورة ما كان يخشاه من قيامه بحملاته على مصر، من شدة ترابط قيادة كل من مصر والشام المسلمة.

وترتب على فشل الحملة عدة نتائج منها ما هو مباشر ومنها ما هو بعيد المدى، فمن النتائج المباشرة الخسائر المادية والبشرية التي صاحبت عمليات الحصار الطويلة، وبخاصة أنه اجتمع على المهاجمين سوء الظروف المناخية وشدة العمليات الحربية وانتشار بعض الأوبئة[٢]، ومؤخراً تحطم الأسطول البيزنطي في رحلة عودته وتعرض بحارته للغرق وفقدان عدد كبير من سفن الأسطول البيزنطي على أثر عاصفة شديدة هاجمته في عرض البحر[٣]، أما خسائر الأرواح فلم يقف الباحث على

---

(١) انظر: ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣-١٤٤، الكامل، جـ٩، ص١٠٥؛ البنداري: سنا البرق، ص٤٥؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٢-١٢٦؛ البنداري: سنا البرق، ص٤٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٤١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٧.

(٣) يقرر وليم الصوري أن العاصفة التي اعترضت الأسطول البيزنطي لم تبق إلا على عدد صغير من وحداته.راجع: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٧، بينما اقتصرت إشارة كيناموس وخونياتس على ما يفيد فقدان عدة سفن من الأسطول خلال رحلة الإبحار.راجع:

Kinnamos, *Deeds*, p.209; Choniates, *Annales*, pp.95-96.

أما تقدير الرواية العربية فإنه يصعب الاعتماد عليها؛ لأنها قدرت خسائر السفن بحوالي ثلاثمائة

عدد محدد بحيث كان تعبير المصادر عن الهلكى منهم بعشرات الألوف، أو أنهم رحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير، وربط ابن تغري بردي بين أثر العمليات الحربية وبين وقوع وباء وفناء قاد إلى تلك النتيجة، ناهيك عما ساقه وليم الصوري في تفضيل الرحيل على الموت والفناء جوعاً أو بحد السيف، أما خونياتس فإنه يؤكد ما ذكره وليم الصوري من تطويق البيزنطيين بالفناء، سواء بالحرب أم بالمجاعة.

كما بثت الحملة في البيزنطيين والصليبيين روح الفرقة؛ ذلك أن نبرة المعاداة للآخر واضحة في المؤلفات اليونانية واللاتينية، بحيث اتهم عموري بالغدر والخيانة وقبوله رشوة من المصريين؛ لأنه كان يحقد على البيزنطيين نصيبهم من الغنائم والأراضي، وأنه ظل يؤخر في الحملة وفي التحرك إليها، بحيث أهدرت مؤن الجيش البيزنطي[1]، ومن جهة أخرى كان تجار حبوب الملك عموري يحققون أرباحاً طائلة من جراء البيع للبيزنطيين الجوعى ممن يملكون المال، وفي المقابل اتهم وليم الصوري الإمبراطور مانويل بأنه لم يف بالتزاماته المالية تجاه الحملة، وأن ذلك كان سبباً في الهزيمة التي تعرضت لها الحملة[2]، وفي نهاية الحملة، كان إندرونيقوس القائد العام للأسطول البيزنطي يصف اللاتين بالغطرسة والعجرفة والخيانة وافتقاد الحماس الديني، وكان من الطبيعي أن يسود سوء الظن وبخاصة أن كل طرفٍ كان يتصرف من قبله دون مراعاته للآخر، بل إن همة إندرونيقوس وتشديده الضغط على المدينة كان لها نتائجها في إثارة مشاعر الحقد والحسد وانتشار ما مفاده أنه يتابع ضغطه على المدينة؛ لأنه ينوي الاستئثار بها لنفسه، وعلى الرغم من ذلك فإن التحالف بين المملكة والإمبراطورية ظل قائماً، بل إن الباحث يتعجب من لفتة وليم الصوري في تأنيب الإمبراطور لقادته، حيث صور الإمبراطور بالرجل الذي يحرص

سفينة وهو أكثر من أكبر رقم ذكر للأسطول كلية في المؤلفات اليونانية واللاتينية، والراجح أن الرواية كانت توازن بين تقديرها لحجم الأسطول الذي وصفته بأنه ألف سفينة وبين عدد السفن التي خسرها الأسطول. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٨٩.

(1) Kinnamos, *Deeds*, p.209; Choniates, *Annales*, p.94.

(2) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٦.

على تحالفه مع عموري، محملاً رجاله مسئولية الفشل دون أن يُعرّض حليفه عموري لشيء من المسئولية[١]، بيد أن الأمر كان أبعد من مجرد تبادل الاتهامات؛ ذلك أنه إذا كان مانويل ناقماً على تصرفات عموري طوال الحملة وعلى النتيجة غير المتوقعة لحملة ضخمة كهذه، فإنه ببصيرته وحسن دبلوماسيته لم يفقد الأمل في محالفة بيت المقدس فيما بعد، ولعل ما تغير إنما عموري الذي واجه في السنوات التالية ضغوطاً شديدة على جبهتيه الشمالية والجنوبية، ربما أدرك وقتها غبائه في إضاعة فرص النجاح في حملته مع بيزنطة.

ومما ترتب على الحملة ما قدمه كيناموس من رواية قصيرة عن قيام صلاح الدين بمراسلة مانويل في تقديم مبلغ من الذهب مقابل الصلح بيد أن مانويل رفض عرضه[٢]، على حين يشير خونياتس إلى إبرام صلح غامض بين صلاح الدين ومانويل، لأن صلاح الدين كان يخشى من مهاجمة البيزنطيين لمصر مرة أخرى[٣]، ويرجح شلمبرجيه عدم صحة ذلك[٤]، وأكد عمران رأي شلمبرجيه على اعتبار انفراد المصادر البيزنطية بذكر ذلك، ولم يوافقها في أي مما ذكرته المصادر العربية واللاتينية، ويرجح عمران اختلاط الأمر على خونياتس في مسألة الاتصال بين مانويل وابنه ألكسيوس الثاني الذي اعتلى العرش البيزنطي بعد أبيه؛ لأن ألكسيوس هو الذي حاول فعلاً الاتصال بصلاح الدين وعرض عليه الأخير الصلح في مقابل عدم اشتراك الإمبراطورية في أي عمل عسكري ضد مصر[٥].

وجعل رنسمان من مماطلة عموري في عمليات الحصار عربون لمودة في المستقبل مع صلاح الدين الذي ظن عموري أنه بإمكانه الإبقاء مع صلاح الدين على ما كان قائماً بين المملكة ومصر أيام شاور[٦]، بيد أن أياً من محاولات الإمبراطورية

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٢٧

(2) Kinnamos, *Deeds*, p.209.

(3) Choniates, *Annales*, p.96.

(4) Schlumberger, *Campagnes* , p.282.

(٥) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣١٨.

(٦) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٢٦.

أم المملكة لم يكن لها أساس، وذلك لسرعة تطور الأحداث التي قام بها كل من نورالدين وصلاح الدين ضد المملكة في الشمال والجنوب، مما أقلق مضاجع عموري ومانويل، وبحيث ينفي قيام أي اتصال بين عموري وبين هؤلاء في السنوات التالية حتى وفاة عموري عام١١٧٤م/٥٦٩هـ، بخاصة أن المصادر المعاصرة كانت قريبة من تفاصيل كثيرة، ربما في توتر علاقة صلاح الدين بنورالدين نفسه، وهي من الملامح الحساسة وبالرغم من ذلك فإنها لم تشر إلى تطور ايجابي في علاقة عموري بالمسلمين، وسوف تشير الصفحات القادمة إلى بعض الإشكاليات التي تنفي حدوث ذلك، ولكن إذا كانت حملة عموري على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤-٥٦٥هـ بداية لتحطم أطماعه فيها فإن حملة عام ١١٦٩م كانت نهاية لتلك الأطماع.

obeikandl.com